فن المراسلات الشعرية
عند شهاب الدين العزازي

دكتور

حامد سعد على خضرجى جاويش

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية بنين بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده مفاتيح الخير، والصلاة والسلام على خير الأنام المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

وبعد ،،،،،

ففي الحقيقة أن ارتباطي بشهاب الديـن العزازي لم يكن وليد اللحظة ؛ بل يرجع ارتباطي به منذ أن كنت في مرحلة إعداد رسالة الماجستير ، حيث قمت بتحقيق جزء من أجزاء السفينة ألا وهو الجزء الثاني عشر ، وهو عبارة عن مختارات شعرية ، وكان منهج ابن مبارك شاه مؤلف هذا الكتاب واضح ، حيث كان ينكب على ديوان الشاعر فيختار خير ما عنده ثم ينتقل إلى شاعر آخر .

وكان العزازي من بين الشعراء الذين اختار من شعرهم ابن مبارك شاه في هذا الجزء ، ولكنه توقف عنده كثيراً ، حيث أفرد له فصلين في كتابه هذا ، الفصل الأول اختار من ديوانه في موضوعات شتى ، ثم أفرد الفصل الثاني في المراسلات الشعرية التي وقعت بين العزازي وبين شعراء عصره ، ومن هنا عقدت النية على أن أدرس فن المراسلات عند العزازي ، فقمت باستقصاء لهذه المراسلات ، فوجدت له إلي جانب هذا الجزء الموجود في كتاب السفينة – والذي لم أعثر عليه في ديوانه - عدت رسائل في الديوان الذي بين أيدينا ، كذلك وجدت له رسائل وردت في كتب التراجم لم ترد أيضا في ديوانه .

هذا وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة :

- **أما المقدمة** : فقد أبنت فيها دافع اختياري لهذا البحث ، ثم أوضحت أهميته في حقل الدراسات الأدبية ، والتخطيط الذي احتواه .
- **وفي التمهيد** : تحدثت عن حياة العزازي ، وعلاقته بمعاصريه ، ومكانته الشعرية ، ثم قمت بالتأصيل لفن المراسلات الشعرية عبر العصور المختلفة .
- **وجاء الفصل الأول** : ليتحدث عن الجوانب الموضوعية لفن المراسلات الشعرية عند العزازي .
- **ثم تناولت في الفصل الثاني** : السمات الفنية للمراسلات الشعرية عند العزازي .

وتأتي **خاتمة** هذا البحث لتسدل الستار عليه بعد أن عرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث .

العزازى حياته ومكانته الشعرية

اسمه ومولده :

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم عبد العزيز بن جامع بن راضى بن جامع العزازي ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن على – رضى الله عنهما - ، شاعر مصري ، كان يعمل تاجراً بقيسارية جهاركس بالقاهرة [1] ، ومن ثم فرض عليه هذا العمل كثرة التنقل والترحال .

(١) ينظر : أعيان العصر وأعوان النصر ، تأليف : الصفدي (ت٧٦٤ هـ) ، تحقيق : فالح أحمد البكور ، دار الفكر ، بيروت ، ط١: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م : ١ / ١٥٧ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير ، دمشق ، ط١: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م : ٨ / ٤٠ ، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، أم القرى ، القاهرة ، (د٠ ت) : ١ / ٢٠٥ – ٢٠٦ ، والدليل الشافي على المنهل الصافي ، لابن تغرى بردى (ت : ٨٧٤ هـ) تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط٢ : ١٩٩٨م : ١ / ٥٦ ، وفوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي (ت : ٧٦٤ هـ) ، تحقيق : د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت د٠ ط ١٩٧٣م : ١ / ٩٥ ، والمقفى الكبير ، للمقريزي ، (ت ٨٤٥هـ) ، تحقيق : محمد على اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ :١٤١١هـ - ١٩٩١م : ١ / ٥٠٩ ، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمري(ت :٧٤٩هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر خريسات ، د/ عصام مصطفى عقلة ، د/ يوسف أحمد بن ياسين ، مركز زايد للتراث والتاريخ ،الإمارات – العَين، ط١ : ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م : ٩ / ٢١٤ ، والوافي بالوفيات ، للصفدي ، التراث العربي ، بيروت (ت : ٧٦٤هـ) ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ :١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م : ٧ / ٩٩ -١٠٥ ، وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل باشا البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د٠ ت : ١ / ١٠٤ .

هاجر جده الأول إلى العريش ، ومنها انتقل إلى قنا ، واستقر به المقام في كفر العزازي ، وقد تفرعت عائلته إلى عدة فروع ، منها فرع استقر في سوريا ، وفرع في كفر عزاز ، وآخر في العريش[١] .

ولد العزازي في قلعة عزاز التي إليها نسب – وقد أختلف أصحاب التراجم حول تاريخ محدد لميلاده ، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥ هـ) أنه عاش ثلاثا وثمانين سنة وباعتبار تاريخ وفاته يكون قد ولد سنة (٦٢٧ هـ) [٢] وذكر ابن تغرى بردى(ت : ٨٧٤ هـ) أنه ولد سنة (٦٣٤ هـ) [٣]، وذكر الصفدي أنه ولد سنة (٦٣٣هـ) [٤] ، وهو ما إليه أميل لأن الصفدي أقدم من ترجم للعزازي ، وعليه يكون العزازي قد عاصر نهاية الحكم العباسي وبداية الحكم المملوكي

(١) ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير (ت :٦٣٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د٠ط ، د٠ت : ٢٢ / ١٨- ٢٢ ، والبداية والنهاية ، لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق : أحمد أبو ملحم ، ود / على عطوى ، وفؤاد السيد ، ومهدي ناصر الدين ، دار الريان للتراث ، القاهر ، ط١ : ١٤٠٨ – ١٩٨٨م : ٨ /١٥٢ – ١٩١ .

(٢) ينظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ١ / ٢٠٥ – ٢٠٦ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٨ / ٤١ .

(٣) ينظر : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، لابن تغرى بردى (ت : ٨٧٤ هـ) تحقيق : د/ محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة :ط١ : ١٩٨٤م : ١ / ٣٦٢ .

(٤) ينظر : أعيان العصر وأعوان النصر : ١ / ١٥٧ ، وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل باشا البغدادي : ١ / ١٠٤ .

علاقاته بمعاصريه :

وأما على صعيد العلاقات الاجتماعية والاتصال بوجهاء القوم وساداته فقد تضافرت عوامل عدة : لعل أهمها أنه كان ذا شخصية اجتماعية ، متصفاً بالكياسة والظرافة[١] هذا فضلاً عن كونه شاعراً وتاجراً ، إذ كلا الأمرين يحتمان عليه الاختلاط بمختلف طبقات المجتمع ، حيث كون علاقات سياسية وأخرى اجتماعية ، فقد اتصل بملوك وسلاطين وأمراء في مصر والشام وامتدحهم بشعر رغبة منه في الحصول على المال والجاه[٢] ، والمراسلات التي بين أيدينا تؤكد أنه كان يحظى بمكانة مرموقة عندهم ؛ لدرجة أن بعضهم كان يرسل في طلبه عند تأخره بداعي الاشتياق .

كما كانت له علاقات جيدة تربطه بكثير من الأدباء والشعراء والمحدِّثين سواء أكانوا من مصر أم من الشام مما كان له كبير الأثر فيما جرى بينه وبينهم من التراسل بالشعر ، حيث جرت بينه وبين شعراء عصره كثير من المراسلات وذلك : كالتلعفرى[٣]

(١) ينظر : فوات الوفيات : ١ / ٩٥ ، والوافي بالوفيات : ٧ / ٩٩ .

(٢) ينظر : ديوان العزازي ، تحقيق دكتور / رضا رجب ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٤ م – دار الينابيع – دمشق : ص ١٤- ١٥ .

(٣) هو : أبو المكارم شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى (٥٩٣ – ٦٧٥هـ) ، ولد بالموصل ، شاعر مشهور ، اشتغل بالأدب ، ومدح الملوك والأعيان ، كان أديباً فاضلاً ، ولكنه ابتلى بالقمار ، سافر إلى نصيبين وأقام بها إلى أن توفى – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) : ٧ / ٢٥٥، فوات الوفيات : ٤ / ٦٢ ، وذيل مرآة الزمان ، لليونيني (ت ٧٢٦) ، تحقيق وزارة التحقيقات والحكمة والأمور الثقافية للحكومة الهندية : ٣ / ٢١٨ .

والموصلى[١] ، وابن النقيب[٢] ، وأبى الحسين الجزار[٣] وسراج الدين الوراق[٤] وغيرهم .

مكانته الشعرية :

لقد كان العزازي شاعراً عظيماً طارت شهرته في سماء البيئة العربية المصرية ، وحلقت شاعريته في أجواء المحافل الشعرية ، والأندية الأدبية في تلك البيئة ، نظم في كل فنون الشعر : المدح – الرثاء – الغزل – الوصف – المراسلات – الخمريات – الموشحات ، وقد شغل شعره وموهبته ومكانته الأدبية رهطاً من أهل عصره الذين أشادوا به .

فنجد الصفدي يذكره بقوله : " كان شاعراً جيد المقاصد ، لطيف الاقتناص للمعاني خفيِّ المراصد ، لتراكيبه حلاوة وعلى ألفاظه طلاوة

(١)هو : شهاب الدين أحمد بن الحسن بن على الموصلي ، شاعر مجيد ، وبارع في الموشحات ، من أصحاب الحظوة لدى ملك حماة الملك المنصور الثاني (٦٤٢ – ٦٨٣ هـ) ، وله فيه مدائح وموشحات ، الوافي بالوفيات : ٦ / ١٩٩ ، والدليل الشافي على المنهل الصافي : ١ / ٣٤ .

(٢) هو : أبو محمد ناصر الدين حسن بن شاور بن طرخان بن الحسن الكناني(٦٠٨-٦٨٧هـ) ، يعرف بابن الفقيسى ، كان رجلاً فاضلاً ، و شاعراً مشهوراً ، له شعر جيد ، مات وله تسع وسبعون سنة ، ودفن بسفح المقطم - فوات الوفيات : ١ / ٣٢٤، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٧ / ٣٧٦ ، والدليل الشافي على المنهل الصافي : ١ / ٢٦٢ .

(٣) هو : يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد (٦٠٣ – ٦٧٩ هـ) ، شاعر مصري ظريف ، عمل بالجزارة هو وبعض أسرته ، وأقبل على الأدب ، ومدح بشعره بعض السلاطين والملوك ، وتهاجى مع بعض شعراء عصره ، وله شعر كثير ، وتوفى مصاباً بالفالج - ذيل مرآة الزمان : ٤ / ٦١ ، وفوات الوفيات : ٤ / ٢٧٧ – ٢٩٣ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٧ / ٦٣٦ .

(٤) هو : سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسين المصري (٦١٥ – ٦٩٥هـ) ، المعروف بالسراج الوراق ، كان أشقراً أزرق العينين ، وهو إمام فاضل ، وأديب مكثر ، وشاعر مشهور ، له ديوان شعر - فوات الوفيات : ٣ / ١٤٠ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٨ / ٨٣ .

"[١]، ووسمه في توشيع التوشيح بـ " الأديب الوشاح "[٢] ، وذكره في الوافي بأنه " كان مطبوعاً ظريفاً جيد النظم في الشعر والموشحات " [٣].

وقال عنه ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢ هـ) : " الشاعر المشهور ، اشتغل في الأدب ومهر وفاق أقرنه ، سمع منه نظمه أبو حيان[٤] والحافظ أبو الفتح[٥] ، وحدث عنه غير واحد " [٦] ، وذكره المقريزي بقوله : " كان شاعراً جيد النظم مطبوعاً "[٧] ، ونعته ابن تغرى بردى في الدليل الشافي بـ " الأديب المشهور صاحب الموشحات البديعية"[٨]، وذكره في المنهل الصافي بأنه " كان أديباً بارعاً مطبوعاً ظريفاً ، له النظم الرائق ، ولاسيما نظمه للموشحات ، فإنه غاية في ذلك "[٩]، ويقول ابن شاكر عنه : " الشاعر المشهور ، كان كيساً ظريفاً جيد النظم في الشعر و الموشحات "[١٠]، وذكره

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر : ١ / ١٥٧ .
(٢) توشيع التوشيح ، للصفدي ، تحقيق : ألبير حبيب مطلق ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١: ١٩٦٦م: صـ ٨٠.
(٣) وفوات الوفيات : ١ / ٩٥ .
(٤) هو : أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النحو النفزي (٦٥٤ – ٧٤٥هـ) ، ولد في غرناطة ، وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة ، اجتهد في طلبه للعلم ، يعد من كبار علماء العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، توفى بالقاهرة بعدما أكف بصره - فوات الوفيات : ١٤/ ٧١، وأعيان العصر وأعوان النصر : ٤ / ٢٠٠٥ – ٢٠٢٢ .
(٥) هو : أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي(٦٧١- ٧٣٤ هـ)، ولد في القاهرة ، كان كريم الأخلاق أديباً محدثاً حافظاً بارعاً ، وهو من حفاظ الحديث، ومن العارفين بصحيحه وسقيمه ، له شعر رقيق ، توفي بالقاهرة - فوات الوفيات : ٣/ ٣٨٧ ، وأعيان العصر وأعوان النصر: ٤ / ١٩٢٧ – ١٩٥٤ ، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ٤ / ٢٧٩ .
(٦) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة :١ / ٢٠٥ – ٢٠٦ .
(٧) المقفى الكبير ، للمقريزي (ت : ٨٤٥هـ)، تحقيق : محمد اليعلاوي :١ / ٥١٠ .
(٨) الدليل الشافي على المنهل الصافي : ١ / ٧٥ .
(٩) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : ١ / ٣٦٣ .
(١٠) فوات الوفيات : ١ / ٩٥ .

ابن حبيب بقوله : " له النظم الرائق ، والموشحات المتقنة البديعية المشهورة "[١].

ورغم هذا الكم من الشعر الموجود في ديوانه الذي لا بأس به ؛ فإنني أذهب إلى أن هناك كماً يماثله قد ضاع من شعره ، وهذا ما يجعلني أعود إلى ديوانه مرة ثانية ببحث آخر فيه بعض الاستدراكات عليه ، لما وجدته في كتاب السفينة ، وغيره من كتب الاختيارات الشعرية التي ألفت في القرن التاسع الهجري ، وكذا بعض كتب التراجم من أشعار كثيرة غير مثبتة في ديوانه .

وفـــــاته :

لا خلاف بين المصادر التي ترجمت للعزازي في أن وفاته كانت بالقاهرة يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم سنة (٧١٠هـ) عن عمر يناهز ستاً وسبعين سنة ، ودفن بسفح المقطم[٢] .

(١) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، لابن حبيب (ت: ٧٧٩هـ) ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦م : ٢ / ٣٤ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٩ / ٢١٤ ، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : ١ / ٣٧٣ ، وأعيان العصر وأعوان النصر : ١ / ١٥٧ .

فن المراسلات الشعرية منذ نشأته حتى عصر العزازي

لقد نشأ فن المراسلات الشعرية في الأدب العربي منذ أقدم العصور ، إذ ترجع جذوره إلى العصر الجاهلي ، حيث بدأ الشعراء يتراسلون بالشعر مما أصبح دليلا قويا على تقيد الشعر بالكتابة في العصر الجاهلي ، فعلى سبيل المثال نجد رسالة (عبد العزى بن قيس الكلبي) إلى قومه التي يقول فيها :

جزانـى – جـزاه الله شـر جزائـه جـزاء سـنمار ومـا كـان ذا ذنـب
سوى رصه البنيان عشرين حجة يعـل عليـه بالقراميـد والسـكب
فلمـا رأى البنيـان تم سـحوقه وآض كمثـل الطـود، ذي البـاذخ

إلى آخر ما قال :

وقـد رامنـا مـن قبلـك المـرء فغـودر مسـلولاً لـدى الأكـم

وكتب عدى بن زيد (ت٣٥ ق هـ) لما طال محبسه عند النعمان إلى أخيه أبَىّ وهو مع كسرى بهذه الرسالة الشعرية :

أبلـغ أبيـا علـى نأيـه وهـل ينفـع المـرء مـا قـد علـم
بـان أخـاك شـقيق الفـؤا د كنـت بـه واثقـاً مـا سـلم
لـدى ملـك موثـق في الحديـد إمـا بحـق وإمـا ظلـم
فـلا أعرفنـك كـذات الغـلا م مـا لم تجـد عارمـاً تعـترم

(١) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية ، تأليف / أحمد زكى صفوت ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده – القاهرة – عام ١٩٣٧م : ١ / ٢ ، و مصادر الشعر الجاهلي ، تألف/ ناصر الدين الأسد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة: ١٩٨٨م :١٢٦ -١٢٧ .

فرد أخوه أَبَيّ على رسالته هذه برسالة أخرى شعرية بلغت عشرة أبيات مطلعها :

إن يكن خانك الزمان فلا عا جز بـاع ولا ألـف ضـعيف

ثم كلم أَبَيّ كسرى في أمر أخيه ، فأرسل إلى النعمان أمراً بإطلاق سراحه[١] .

أما الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام فقد كثرت ، ومن هذه الرسائل ما كتبه كعب بن زهير (ت٢٦ هـ) إلى أخيه بجير حينما علم بإسلامه :

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالة فهل فيما قلت بالخيف هل لكا؟

سقيت بكأس عند آل محمد فأنهلك المأمون منها وعلكا

فخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء ، ويب غيرك ، دلكا

فلما وقف بجير على رسالة أخيه هذه فرد عليه قائلاً :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلاً وهى أحزم

إلى الله - لا العزى ولا اللات - فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير- وهو لا شئ دينه - ودين أبى سُلْمى على محرم[٢]

(١) مصادر الشعر الجاهلي : ١٣٠ .
(٢) مصادر الشعر الجاهلي : ١٢٧ .

ولقد أرسل أبو سفيان وأُبَيّ بن خلف كتاباً إلى الأنصار يعاتبانهم فيه على إيوائهم رسول الله (×) ويطلبان منهم أن يخلوا بينه وبين قريش ، فأرسل إليهما كعب بن مالك الأنصاري برسالة شعرية مفادها :

أبلـــغ أبيـــا أنـــه قـــال رأيـــه وحـان غـداة الشـعب والحـين واقـع

أبـى الله مـا منتـك نفسـك إنـه بمرصـاد أمـر النـاس راء وسـامع

وأبلـغ أبـا سـفيان أن قـد أضـا لنـا بأحمد نور مـن هـدى الله سـاطع[١]

ومن الرسائل الشعرية التي نظمت في عصر الخلفاء الراشدين رسالة نصر بن حجاج إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (÷) :

لعَمـري لـئن سـيرتني أو حـرمتني وما نلت من عرضي عليـك حـرام

فأصـبحت منفيـاً علـى غـير ريبـة وقـد كـان لـي بـالمكّتين مقـام

لـئن غنَّـت الـدلفاء يومـاً بمنيـة وبعـض أمـاني النسـاء غـرام[٢]

وكذلك كتب معاوية إلى سعيد بن العاص :

تـالله لا يـذهب شـيخي بـاطلا حتـى أبيـد مالكـا وكـاهلا

القـاتلين الملـك الحلاحـلا خـير معـد حسـبا ونـائلا[٣]

هذا ولقد تعددت أغراض المراسلات الشعرية في العصر الفاطمي ، إذ نجد بعض الرسائل يبعث بها الشعراء إلى القادة يحثونهم على النضال ضد الصليبين ومواصلة الحرب عليهم ، وكانت رسالة الوزير الشاعر

---

(١) المصدر السابق ذاته والصفحة .

(٢) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية : ١/ ٢٥٢ ، والمستطرف في كل كل فن مستظرف، للأبشيهى ، عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤١٩ هـ : ٤٠٩ .

(٣) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية : ٣٠٣ .

الفاطمي (طلائع بن رزيك) (ت٥٥٦ هـ)خير مثال على ذلك ، إذ نجده يزف البشرى إلى مؤيد الدولة (أسامة بن منقذ) (ت ٥٨٤ هـ) بانتصارات المصريين ، ويستحث جنود نور الدين أن يغيروا على العدو حتى تستطيع القوتان معا تحطيم شوكته يقول :

سارت سرايانا لقصد الشام تعتسف الرمالا

وهذا ، وفي تل العجال ملأن بالقتلى التلال

إلى أن قال :

عدنا بتسليم الأمور لحكم خالقنا تعالى[١]

فلما وقف (أسامة بن منقذ) على هذه الرسالة فأجابه شاكراً له ومطمئناً وداعياً إياه إلى مزيد من التعاون والوقوف جنباً إلى جنب مع القائد (نور الدين) الذي صمم على حماية بلاد الشام ومنازلة أعدائها الصلبين فقال :

يا أشرف الوزراء أخلا قاً ، وأكرمهم نعالاً

نبهت عبداً طالما نبهته قدراً وحالاً

وعتبته ، فأنلته فخذاً ، وحمداً ، لن ينالاً

فأسلم له لنا حتى نرى لك في بني الدنيا مثالاً

واشدد يديك يود (نو ر الدين) واثق به الرجالا[٢]

ومن الرسائل الشعرية في العصر الفاطمي التي تدعو إلى مجاهدة المشركين والتأكيد على مواصلة قتالهم ورفض الصلح معهم، أيضا رسالة

(١) الشخصيات المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ، تأليف الدكتور / أحمد سيد أحمد ، دار المعارف ، طبعة عام ١٩٨٩م : ١٨١ .
(٢) المصدر السابق : ١٨٢ .

طلائع بن رزِّيك (ت٥٥٦ هـ) إلى مؤيد الرملة أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) يقول فيها :

وقد كاتبوا في الصلح ، لكن بحضرتنا ما تكتب الخط لا الخط

سطور خيول لا تغب ديارهم لها بالمواضى والقنا الشكل

وكان من الأغراض التي تكتب من أجلها الرسائل الشعرية في العصر الفاطمي التهنئة ، وذلك كرسالة العماد التي بعث بها من الشام إلى صلاح الدين(ت ٥٨٩هـ) مهنئاً إياه قائلاً :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها مسيراً فتحها للقدس عن كثب

من شر (شاور) أنقذت العباد فكم وكم قضيت لحزب الله من أرب[٢]

وإذا كانت الرسائل الشعرية قد أرسلت في العصر الفاطمي بشأن الحث على الجهاد ، والتهنئة بالأعياد ، فإنها قد أرسلت أيضاً من أجل البشرى بتولية سلطة ، وذلك كرسالة الشاعر (ابن سعيد الجلمي) يزف البشرى إلى (صلاح الدين) (ت ٥٨٩هـ) لتوليه مصر:

يا أيها الملك العزيز فضله لقد عددت بالعلا مليا

كفى أمير المؤمنين شرفاً أنك أصبحت له ولياً[٣]

أما بالنسبة للعصر المملوكي ذاك العصر الذي عاش فيه الشاعر العزازي ، فقد كانت الرسائل الشعرية فيه أكثر تنوعاً وأوسع مجالاً ، إذ اتخذها الشعراء والأدباء وسيلة من وسائل التراسل فيما بينهم ، وأخذوا

(١) الشخصيات المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي: ١٨٢ .
(٢) المصدر السابق ذاته والصفحة .
(٣) المصدر السابق : ٩١- ٩٢ .

يضمنونها موضوعات شتى : كالعتاب ، والشكوى ، والمديح ، وتبادل الرأي ، والمفاكهة ، والتهاني وما إلى ذلك ، ويلحظ عليهم في هذا الفن الشعري أنهم قد ترسموا خطى وخصائص هذا اللون الكتابي المعروف بالإخوانيات وما يتسم به من الإسراف في عبارات المجاملة ، ونعوت التعظيم والتكريم للمرسل إليه ، والتواضع من الراسل، وإن كان مساوياً له في الرتبة ، وخير مثال على ذلك هذه الرسالة التي بعث بها الأديب الفاضل شرف الدين عيسى بن حجاج العالية[١] إلى الوزير الكاتب فخر الدين بن مكانس[٢] أحد أعلام الكتاب في القرن الثامن الهجري ، كتب يقول :

أني جلست بشمعة موقودة لأطالع الأسفار للتسبيح

فتناولت شاشي أوائل نارها وتمكنت منه بمر الريح

من قبل حرق الشاش كنت في الكتب صرت مطالعاً في الروح[٣]

ومن السمات العامة التي كانت تميز الرسائل الشعرية في العصر المملوكي أن الشعراء كانوا يناسبون بين اللفظ والموضوع ، وإن كان هذا

(١) وهو : شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي المصري ، الحنبلي الأديب الفاضل المعروف بعويس العالية ، كان فاضلاً في النحو واللغة ، وسمي عويس العالية ، لأنه كان عالية في لعب الشطرنج ، توفى عام (٨٠٧ هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٧ / ٣٧ .

(٢) وهو : أبو الفرج فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرازق بن إبراهيم المعروف بابن بابن مكانس ، شاعر مصري أصله من القبط ، ولد بالقاهرة سنة(٧٤٥ هـ) وتولى منصب ناظر الدولة بالقاهرة ،وكان وزيراً بالشام ، ثم عين وزيراً بمصر ، وقتل مسموماً سنة (٧٩٤ هـ)- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ٢ / ٣٣٠، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ١٢ / ١٣١، و شذرات الذهب : ٣٣٤/٦ .

(٣) ينظر : الأدب في العصر المملوكي ، تأليف دكتور / محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة عام ١٩٧١م : ٢ / ١٤ – ١٥ ، ومطالع البدور ومنازل السرور : ٣٩ .

من سمات فنون القول عامة في ذاك العصر ، إلا أنه كان أكثر ما يكون في الرسائل الشعرية .

ومن أشهر شعراء المراسلات الشعرية في العصر المملوكي شهاب الدين الخيمى[١] إذ يعد من أبرز الشعراء الذين كانت لهم مراسلات في أغراض شتى ، وتعد رسائل التهنئة من أغلب الموضوعات التي نظم فيها ، فقد عددت له في ديوانه[٢] اثني عشرة قصيدة يهنئ فيها صديقه ابن خلكان[٣] في مناسبات مختلفة ، كحلول شهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى ، أو عندما كان يرقى في منصبه أو يتولى منصباً جديداً ، أو يعود إلى منصب كان قد عزل منه ، ومن التهاني التي بعث بها إلى صديقه ابن خلكان ، قوله يهنئه بحلول شهر رمضان :

مولاي شهر الصيام وافى وهو مشوق إلى لقائك

يأمرنا بالصيام شكراً لنعمة الله في بقائك

لا زلت في العز ذا ارتقاء العز يعتز بارتقائك

(١) هو : أبو الفضل شهاب الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصاري اليمني المصري المعروف بابن الخيمي، ولد بمصر سنة (٦٠٢ هـ)،وعاش متصوفاً ، وصديقاً لابن الفارض في كثير من أديرة مصر ، توفى سنة(٦٨٥هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة :٧/ ٣٦٩ ،و شذرات الذهب: ٣٩٣/٥ .

(٢) حقق ديوانه في رسالة علمية(ماجستير) ، إعداد الباحث / شادي إبراهيم حسن عمرو ، إشراف الأستاذ الدكتور / حسن محمد عبد الهادي عيسى – جامعة الخليل عام ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

(٣) هو : أبو العباس شمس الدين أحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي ، كان عالماً أديباً بارعاً ومؤرخاً جامعاً وله أشعار رائعة ومقاطع فائقة ، ولد بأربيل سنة (٦٠٨ هـ) ، ثم انتقل إلى الموصل ثم حلب ثم دمشق ثم القاهرة ، وتولى قضاء دمشق ، توفى بها عام (٦٨١هـ)-الوافي بالوفيات: ٧ / ٣٠٨ ،وفوات الوفيات: ١/ ١١٠،و النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة :٧ / ٣٥٣ .

تبلـــــغ أمثالـــــه ســـــعيدا لكبـــــت أعـــــداء أوليائـــــك

كمـــا لمـــولاي مـــن عـــدو والنـــاس كـــل علـــى ولائـــك[١]

فمن خلال هذه الرسالة يمكن أن نقف على جانب من الخصائص العامة للرسائل الشعرية في هذا العصر ، إذ نجد ابن الخيمي يهنئ صديقه ابن خلكان بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك ، وانظر إلى هذه المبالغة التي هي أحد خصائص هذا الفن إذ يجعل الشهر الكريم يجئ مشتاقاً للقاء صديقه ، ويأمر الناس بالصيام شكرا لنعمة الله على عباده ببقاء ابن خلكان ، ومنها: الدعاء فيدعو لصديقه بدوام العز والارتقاء ، ثم يتمنى له أن يشهد ما يليه من أشهر الصيام في سعادة ، وتكون له الغلبة على أعدائه ، رغم أنه لا أعداء له ، فالناس جميعا على ولاء له ، وعلى الرغم من كونه صديقا له ومساويا له يقدم بين يديه الاحترام والتعظيم فيدعوه بمولاه .

ومن فرسان الرسائل الشعرية في هذا العصر الشاعر (ابن النقيب) (ت٦٨٧هـ) الذي دارت بينه وبين شعراء عصره كثير من الرسائل الشعرية فقد بعث برسائل مدحية كثيرة لشهاب الدين الخيمى ، منها هذه الرسالة التي يمدحه بها ويعبر فيها عـن شوقه لسماع شعره العذب مطلعها :

أنـــا عبـــد لابـــن عبـــد المـــنعم لـــه في كـــل فضـــل أنتمـــى[٢]

(١) ديوان شهاب الدين الخيمي : ١٣٣ .
(٢) رسالة ماجستير- تحقق ودراسة ديوان ابن الخيمى، من إعداد الباحث / شادي إبراهيم حسن عمرو: ٧٣.

فأجابه ابن الخيمى برسالة بلغت واحدا وعشرين بيتا مطلعها :

واجـــب شـــكري لمـــن أرســـلها مـــن الواجـــب شـــكر المـــنعم[١]

وقد تراسل ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) مع الشهاب العزازي كثيرا وسنعرض لهذه الرسائل في غضون هذا البحث حتى لا يكون هناك تكرار، ومن هؤلاء الشعراء أيضا سراج الدين الوراق ، وله أيضا مراسلات كثيرة مع العزازي سنذكرها في حينها ، ولكننا نذكر أنه كانت تجمعه بابن النقيب صداقات حميمة ، وعلاقة وطيدة ، لذا فقد جرت بينهما مراسلات كثيرة ، نذكر منها هذه الرسالة التي بعث بها سراج الدين الوراق إلي ابن النقيب وكان يسكن الروضة ،فيقول متشوقا إليه :

يـا سـاكن الروضـة أنـت المشـتهى مـن هـذه الـدنيا وأنـت المقتـضى

ويـا سـرور الـنفس مـن الشـعرا أنت الرضي فيهموا وأنت المرتضى

ويـا ســراجاً لم تــزل أنــواره تعيــد مســود الليــالي أبيضــا

مـــالي أراك قاطعـــاً الوصـــل ومعرضـا عـن مقبـل مـا أعرضـا[٢]

وقد أجاب ابن النقيب عليها مشيرا إلى ما كان بينه وبين الوراق من صداقة وود وتلازم فقال :

لو فرَّبغلي من اصطبلى لقلت لمن يجـرى وراءه تمهـل أيهـا الجـاري

ففـي آفـاق الســراج الـدين موقفـه أو ذاك الخط أو في حوقه الداير[٣]

(١) المصدر السابق : ٧٤ .
(٢) الأدب في العصر المملوكي : ٢ / ١٦١ .
(٣) المصدر السابق : ٢ / ١٦٢ .

ومن أعلام فن المراسلات الشعرية في العصر المملوكي أيضاً: الشهاب محمود[١] وكمال الدين ابن النبيه[٢] وشهاب الدين التلَّعفري وغيرهم .

أما الشاعر شهاب الدين العزازي فقد تبادل الرسائل الشعرية مع كثير من أدباء وشعراء وأمراء عصره ، وقد تجاوزت السبعين رسالة ، وهو أمر لافت للنظر ، ويستحق الدراسة ، وقد وقفت على رسائله فوجدت جزءاً منها في ديوانه وهى تسع رسائل في الباب الأخير من ديوانه[٣]، ووجدت كماً ليس باليسير في كتب التراجم[٤] ، وحصلت على النصيب الأكبر منها في كتاب السفينة الجزء الثاني عشر منه والذي قمت بتحقيقه في رسالة الماجستير ففيه فصل كامل عن هذه الرسائل[٥].

وقد جاءت هذه الرسائل متنوعة الموضوعات ، وكان يرسل إلى أصدقائه فيجيبونه ، وحيناً آخر يرسلون إليه فيجيبهم ، وبلغ عددهم واحداً وعشرين شاعراً ومن أبرزهم ، شهاب الدين التلَّعفري (ت٦٧٥هـ)، وابن النقيب الكناني (ت٦٨٧هـ) ، وابن الجزار (ت٦٧٩ هـ) ، وسراج الدين

---

(١) هو : أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي ، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، ولد بحلب سنة (٦٤٤هـ) ، وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره ، وشاعرا مكثرا ، توفى عام (٧٢٥هـ) – أعيان العصر وأعوان النصر : ٣٢٧/٥ ، و فوات الوفيات : ٤ / ٨٢ ، والدرر الكامنة : ٤ / ٣٢٤.

(٢) هو : أبو الحسين كمال الدين على بن محمد بن يوسف بن النبيه المصري شاعر من أهل مصر مدح الأيوبيين ، وتولى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى في نصيبين ، توفى سنة (٦١٩هـ) – وفيا ت الأعيان : ٥ / ٢٣٦ ، الوافي بالوفيات : ٢١ / ٤٣١ ، والأعلام : ٣ /١٠ .

(٣) راجع ديوان العزازي من ص ٣٢٣- ٣٤٨ .

(٤) راجع فوات الوفيات :١/ ٩٧ ،٤ / ٦٨،٤ / ٦٩، ٤/ ٧٠،و أعيان العصر وأعوان النصر : ٣ / ٦٦٧.

(٥) راجع كتاب السفينة ،لابن مبارك شاه -الجزء الثاني عشر منه الذي قمت بتحقيقه ضمن رسالة الماجستير : ٢ / ٤٨٤ - ٥٧٤ .

الوراق (ت٦٩٥هـ) ، ومجد الدين بن الظهير[١]، وجمال الدين التلمساني(ت٧٤٢هـ) ، وتقي الدين السروجي[٢]، وابن الخياط[٣] وشهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ) ، وابن دانيال[٤] ، ونور الدين على المغربي[٥] .

(١) هو : محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد ابن أبي شاكر الإربلي ، مجد الدين ، ابن الظهير : شاعر ، أديب، من فقهاء الحنفية، ولد بإربل(٦٠٢هـ) ، وتنقل في العراق والشام، ومات بدمشق عام(٦٧٧ هـ) ، له : " تذكرة الأريب وتبصرة الأديب " و " مختصر أمثال الشريف الرضي " و " ديوان شعر " في مجلدين – فوات الوفيات : ٣ / ٣٠١ ، الأعلام : ٥ / ٣٢٣ .

(٢) عبد الله بن علي بن منجد بن ماجد بن بركات ، تقي الدين السروجي ، ولد بسروج(٦٢٧ هـ) ، كان رجلاً خيّراً عفيفاً تالياً للقرآن ،عنده حظ جيد النحو واللغة والآداب، متقللاً من الدنيا، يغلب عليه حب الجمال مع العفة التامة والصيانة، نظم كثيراً وغنى بشعره المغنيون، توفى سنة(٦٩٣ هـ) - فوات الوفيات : ٢/ ١٩٦ ، والأعلام : ٤ / ١٠٦ .

(٣) أ بو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي الدمشقي، المعروف بابن الخياط ، ولد بدمشق سنة(٤٥٠ هـ) ، سافر مع أبى النجم بن بديع الأصفهاني ، بلغ الرىّ ، وعاد منها إلى دمشق ، كان كاتباً شاعراً جيد الشعر رقيقه ، وتوفي بدمشق في ١١ رمضان عام (٥١٧ هـ) ، - معجم المؤلفين: ٢/ ١٣٦ ، ووفيات الأعيان : ١ / ٤٥ ، والأعلام : ١ / ٢١٤ .

(٤) هو : شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي، طبيب رمدي (كحال) من الشعراء ولد بالموصل عام (٦٤٦ هـ) ونشأ بها ، وفد إلى القاهرة ، وتوفي بها عام (٧١٠ هـ) – الوافي بالوفيات : ٣ / ٥١ ، وفوات الوفيات : ٢ / ٣٨٣ ، والأعلام : ٦ /١٢٠ .

(٥) هو : نور الدين على بن سعيد المغربي كان عالي المحل في النحو والأدب وساير فنون الأدب منحط الشعر توفى عام (٥٢٠ هـ) وكان مولده عام (٤٢٠ هـ) - الوافي بالوفيات : ١/ ٢٥١ .

الجوانب الموضوعية لفن المراسلات الشعرية عند العزازي

أوضحت فيما سبق أن العزازي قد وصفه غير واحد من المتقدمين بأنه شاعر ظريف ، تربطه بغيره من الشعراء ، والسلاطين ، والشخصيات البارزة من وجهاء القوم ، علاقات اجتماعية وطيدة ، ومن ثم فإن فن التراسل بالشعر أصبح عنده سمة بارزة ، ولا يخفى ما في" هذا اللون من تصوير للعلاقات الاجتماعية بين الشعراء وممدوحيهم ، أو بينهم وبين أصدقائهم وأحبابهم"(١)، إذ الدافع من وراء هذا الفن المودة والصداقة ، والتسرية عن النفس ، والرغبة في إيجاد جو من المرح والبهجة .

ولقد نظرت في الرسائل التي دارت بين الرجل ونظراء عصره من الشعراء ، فوجدت أنها لم تقتصر على موضوع شعري واحد ، بل تناولت موضوعات عدة ، كالمدح ، والمعاتبة ، والاستيهاب ، والدعوة بالحضور إلى المجالس الأدبية، والمداعبة ، وطلب بعض الأشياء من المرسل إلية ، وفيما يلي ألقى الضوء على هذه المضامين .

المديح والتشوق :

يعد غرض المديح من أبرز الأغراض التي غلبت على شعر العزازي ، إذ يستحوذ على الجزء الأكبر من ديوانه(٢)، ويبدو لي من خلال سيرته وشعره أن الرجل لم يكن يبغى من وراء مديحه تحصيل المال ، فقد كان يعمل بالتجارة التي تعود عليه بالمال الوفير ،لكنه كان يبغى من ورائه

(١) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، تأليف الدكتور / بكرى شيخ أمين : ٢٨٨.

(٢) راجع ديوان العزازي : ١٨.

الفوز بالشهرة ، ونيل الحظوة لدى الوجهاء والعظماء ، وكان هذا لديه أفضل من الحصول على العطايا والهبات .

ومن رسائل المديح الشعري هذه الرسالة التي بعث بها العزازي إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) عدد فيها مناقبه ، وعلو قدره ، وذلك بعد مقدمة غزلية طويلة ، نجده يقول :

فكأني زعمت أن النجوم الـز هـر تعلو مناقب ابن النقيب
لا ونعماه لم تكن ذا وهل يصـ ـدر ذا عن مهذب أو لبيب
أريحي تهز عطفيه للجو د رياحٌ معوداتُ الهبوب
ألمعي يكاد يعلم بالفط ـنة والحدس ماوراء الغيوب
فهو كأس من المحامد والشكـ ـر عار من الخنا والعيوب
في قميص من المآثر فضفا ضٍ وبرد من الفخار قشب
من أناسٍ لو أن أخلاقهم للـ ـوض لاعتاض عن صبٍّ أو جنوب
ولو ان الدجى أعير سجايا هم لقالت للأنجم الزهر غيبى[1]

لقد سجل لنا العزازي في هذه الأبيات من الرسالة نبضات قلبه ، وخلجات نفسه تجاه صديقه ابن النقيب ، إذ نجده يخلع عليه كثيراً من الشمائل والصفات الحسنة ، التي جعلته يعانق الجوزاء ، بل يعلو بها فوق

(١) الحس النقدي في كتب الاختيارات الشعرية في القرن التاسع الهجري مع تحقيق الجزء الثاني عشر من كتاب السفينة لابن مبارك شاه ، رسالة ماجستير ، من إعداد الباحث / حامد سعد على خضرجى- إشراف أ ٠ د / عبد الكريم أحمد فراج ، و أ ٠ د / السيد دياب يوسف دويدار ، كلية اللغة العربية، إيتاى البارود، جامعة الأزهر، عام ٢٠٠٩م : ٢ / ٤٩٠ .

الأنجم الزهر ، فهو كريم يجود بلا حدود ، ألمعي به من الذكاء والفطنة ما يجعله يتوقع بعض الأمور ويتكهن بها قبل حدوثها ، إذ هو أحد القلائل في عصره الذين سمت أخلاقهم فطمست أمجاد غيرهم ، ثم نجده ينتقل إلى وصفه بالنجابة ، إذ هو أمير ابن أمير فيقول :

الأمـــير المهـــيب في يـــوم بـــوسٍ ونعيـــم وابـــن الأمـــــير المهيـــب
والنجـــيب الـذي خـلائـــله لـــم تـــأت مـــــنه إلا بكـــل نجـــيب
وإذا سحـــــت الغـــمام لـــم تـــر مـــك إلا بصـــائب الشـــؤبوب[1]

في الأبيات السابقة يوضح العزازي بأن الإمارة ليست تشريف وإنما هي تحمل للمسؤولية ، لذا نجده يمدح صديقه في هذه الرسالة بأنه أمير ذو هيبة ، وهيبته هذه منبثقة عن مشاركته لقومه في أفرحهم وأتراحهم ، وليس ذلك بغريب عليه ؛ لأنه تربى في بيت الإمارة ، فهو أمير ابن أمير ، حيث أكتسب هذه الخلال الطيبة ، والسمات الحسنة من هذه التنشئة الصالحة .

ثم يذكره بأنه أديب وشاعر لا يشق له غبار فيقول :

شـاعر لـو ادعـى الوليـد قوافيـ ـــه لـــولىَّ مستـــصرخاً بحبيـــب
وأديـــب رقّـــت حواشـــي معانيـــ ـــه فكانـــت طـــراز كـــل أديـــب
مـاهرٌ قـادر علـى الـنظم والنثـ ـــر مليـح التشـبيه والتشبـيب
جيد النقد خالص السبك جـلا ب لبـاب المـديح حلـو النسـيب

(١) المصدر السابق ذاته: ٢ / ٤٩١ .

أيها المقتفى قوافيه ما ضر بك والله مثل تلك الضروب

أنت من جيد القريض بعيد لا أحاشيك وهو جدٌّ قريب

ليس من يستمد ماء خضم مثل من يستمد ماء قليب[1]

لقد أشاد العزازي في أبياته السابقة من رسالته هذه بشاعرية صاحبه ابن النقيب ، إذ لا يستطع أحد مجاراته ولو كان من أكبر الشعراء ، فهو رقيق المعاني ، يجيد الشعر والنثر ، جيد السبك والنقد ، يحسن التشبيه والتخلص إلى المديح ، يصيب المحز في شتى الأغراض ، إذا حاول شاعر الاقتداء به عجز .

ولا يخفى أن هذه المعاني شاهدة على ثقافة العزازي الواسعة بالشعر ونقده ومصطلحاته ، ومن ثم فقد جاءت هذه المدحة حسنت المعاني رقيقة الألفاظ ، فأهل مكة أدرى بشعابها ، ثم ختم العزازي رسالته بالدعاء لصاحبه والشكر له قائلاً :

ابق مستعليا عزيزاً بمصرٍ آمراً في ذرى الجناب الخصيب

فمتى لم أقم بشكر أياديـ ك خطيباً لا كنت نجل

في ختام الرسالة تمنى لصديقه دوام العلا والعزة ، وأن يكون من أولى الأمر والنهى في بلده مصر ، وأنه مهما قال ونظم في شكره لم يؤده حقه ، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على خالص الود والحب والوفاء تجاه الصديق .

---

(١) السفينة : ٢ / ٤٩١ .

(٢) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩١ .

وإذا كانت الرسالة السابقة قد صدرت من شاعر في هذا المستوى ؛ فإن الرد عليها قد جاء من شاعر لا يقل عنه ضراوة ، حيث نظم جوابها على الوزن والمعنى ذاتيهما فقال ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) بعد مقدمة غزلية :

وإلى أحمد العزازي يعزى كل فضل قد حاز كل أديب

شاعر ما يرى له من ضريب في أعاريض شعره والضروب

وأديب مستعذب اللفظ مستحـ ـلا المعاني مستملح الأسلوب

هذب القول ثم أوجز فيه فأتى بالوجيز في التهذيب[1]

وهكذا يعترف ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) للعزازي بكل فضل في جوابه على رسالته السابقة ، حيث قد حاز كل فضائل الشعراء ، في الألفاظ والأساليب ، وفي المعاني والموازين ، يوجز اللفظ لكنه يأتي بالكثير من المعاني فيصيب المحز ، ثم نجده يعترف له بفضل السبق أيضا ، وأنه طرب من حسن ألفاظه ، ودقة معانيه قائلاً :

أنت مازلت صاحب الفضل والفضـ ـل بلا مرية ولا تكذيب

وصلتني عقود نظمك يا أحـ ـمد تسبى العقول في الترتيب

كسبت طرسها جمالاً وحسناً مثل عقد مزين بترتيب

عرضت لي فما صبوت إلى الصبا بى وأعرضت عندها عن حبيب

(١) السفينة : ٢ / ٤٩٢ .

وتخـيرتها عـلى حسـن مـا قـا ل ابن هاني بمصرنا في الخصيب[١]

وفي الختام أيضا نجد ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) يدعو للعزازي بدوام الصحة والعافية ، وأن ينعم بالأمن والأمان ، وأن يظل متربعاً على عرش الشعر في مصر والشام فيقول :

دمـت يـا شـاعر الشـام ومصـرٍ في أمـان مـن حـادثات الخطـوب[٢]

ونستنتج من خلال الرسالتين السابقتين ؛ أن الدعاء للمـرسل إليه أصـبح أحـد الخصائص التي تمييز الرسائل الشعرية في العصر المملوكي ، وذلك سيراً على منهج الرسالة النثرية .

ومن رسائل العزازي الشعرية التي أتت مشتملة على المديح تلك الرسالة التي بعث بها إلى الأديبين أبى الحسين الجزار(ت: ٦٧٩ هـ) وسراج الدين الوراق (ت:٦٩٥هـ) والتي عبر فيها عن إعجابه بهما ومدى شوقه إليهما ، فبدأها بمقدمة غزلية قالاً :

خليـا بـين جفـوني وسـهادي واتركـا بـين شجـوني وفـؤادي

وانقصـا مـا زاد مـن نصـحكما ودعـاني بـين ضـلالي أو رشـادي

كيـف يسـلو عاشـق ذو كبـد لم يـزل بـين اشتعـال واتقـاد

ودمـوع كلمـا كفكفـها أقبـلت بـين تـوام وفـرادى[٣]

(١) المصدر السابق : ٢ / ٤٩٣ .
(٢) المصدر السابق ذاته والصفحة.
(٣) السفينة : ٢ / ٤٩٤ .

بدأ العزازي رسالته بالغزل ، على عادة الشعراء القدماء ، وخاطب في هذه الأبيات صاحبيه بأن يخليا بينه وبين الحزن والسهر على فراق الأحباب ، فهو لا يستطيع أن يسلو هذا الفراق ، إذ كلما تجمل بالصبر ، أقبلت دموعه مدراراً ، ثم بدأ في مدح صديقيه (الجزار ، والوراق) وبين أنهما فارسا حلبة الشعر فقال :

فارسا نظمٍ متى ما اندفعا يوم سبق فاطرح سبق الجياد[١]

ومنها :

كلم أشهى إلى أعيننا من خيال لحبيب أو رقاد[٢]

ثم ذكر اسمهما في ثنايا تلك الرسالة فقال :

وادع يا يحيى وصح يا عمرو فيجيبان الندى حين تنادى[٣]

وكان قد تطرق في هذه الرسالة إلى مدح مصر من خلال مدحه لهما فقال :

بلدة سادت على أمثالها وعلت قدراً على كل البلاد

بالجمال الأروع السامي الذرى والسراج الأبلج الوارى الزناد

أخو فضل وفهم وزكا وذوى حسب وود واتحاد

خلقا من طينة واحدةٍ ولقد ارتضعا ثدى الوداد[١]

(١) المصدر السابق : ٢ / ٤٩٥ .
(٢) المصدر السابق ذاته والصفحة .
(٣) المصدر السابق : ٢ / ٤٩٥ .

وفي إطار مدح العزازي لصديقيه في هذه الرسالة نجده يتطرق إلى مدح مصر بلديهما ، فقد نشأ وترعرعا فيها ، فمن طينتها تشكلت طبيعتهما ، ومن نيلها شربا الوفاء والوداد ، فأنعم بها من بيئة طيبة أثرت عليهما حتى أصبحا من كبار الشعراء ، فشرفت بهما لأنهما من أبنائها الأبرار ، وفي الختام على عادته نجده يدعو لصديقيه بقوله :

واسلما في نعمة موصولةٍ بدوام ونمو وازدياد

واشرفا قد فقتما كل الورى واعظما قد فتما كل العباد[٢]

ففي ختام هذه الرسالة نجده يدعو لصديقيه بالسلامة وموفور النعمة ودوامها ، كما دعا لهما بأن يظلا في رفعة وتقدم يحظيا ويتميزا بهما عن كل العباد .

ثم جاء الرد على هذه الرسالة من الشاعرين الوراق والجزار، وقد اشتركا في نظمها فقالا بعد المقدمة الغزلية :

وأرى أحمد قد أصلح ما قد تأتى في اليالى من فسادي

لشهاب الدين عندي من حسنات كفرت كل إساءات العباد

وصفات نسخت بين الورى وصف في كتاب المستجاد

شاعر أضحى عبيد عبده وأراه زاد فضلا عن زياد

شعره مثل زلال الماء من خاطرٍ متقداى اتقاد[٣]

---

(١) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩٤ .
(٢) السفينة: ٢/ ٤٩٥ .
(٣)المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩٦.

ومنها قولهما فيه :

يا بنىّ الشعر دعوا السبق له فله السبق بميدان الجياد

وله من كل غد صفوه ولنا من ذلك أكدار الثماد

قد تطوقنا أياديه بها مدحة تنسيك ما قال الإيادى[١]

ولم تتوقف رسائل العزازي المدحية عند إبراز المثل الأعلى لمن يرسل إليه بل نجده يبدى اشتياقه إليه ، يتضح ذلك من خلال هذه الرسالة التي بعث بها إلى نور الدين[٢] الكاتب بحماة ، يقول :

لي مقلة مشتاقة طول الحياة لنورها

وحشاشة لفراقه تصلى بنار زفيرها

وجوانح تصبو إليه وهو بين ضميرها[٣]

فالعزازي يرسل بأشواقه الحارة إلى صديقه الذي يقطن بحماة ، وما ذلك إلا من دافع المحبة والمودة ، غير منكر للألم الذي لحق به جراء ابتعاده عنه ، فإذا حالت الأقطار بينهما ، فمحبته تسكن فؤاده لا تفارقه ، ولذلك قال أعرابيٌ في المودة : " المودة قرابة مستفادة "[٤].

(١) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩٧ .
(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يديَّ من مصادر للتراجم سوى ما ذكر في متن الديوان من أنه يدعى نور الدين ، وأنه يعمل كاتباً في حماة .
(٣) ديوان العزازي : ٢٣١ .
(٤) الصداقة والصديق ، لأبى حيان التوحيدي ، شرح وتعليق - على متولي صالح – مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٧٢م : ٣٤٦ .

ولا يقف العزازي عند التعبير عن اشتياقه فحسب ، بل نجده يعدد الأوصاف التي يتميز بها ذاك الصديق ، فيصفه بالبراعة في الكتابة ، والفطنة والفصاحة ، وحسن سبكه للعبارة ، التي تأخذ بالألباب ، وتسيطر على الفؤاد ، فيقول :

كم قلدت جيد الطرو س بنانه بشذورها
وحكمت أزاهير الربيـ ـع مذهبات سطورها
ذو فطنة سحبت بها الد دنيا ذيول سرورها
وعبارة كم أسكر الـ ألباب نشر عبيرها[1]

كذلك نجد العزازي لا يقصر مثل هذه الرسائل على أصدقائه فحسب ؛ بل نجده في بعض رسائله يبدى تشوقه لبعض الملوك ، كالملك الأفضل نور الدين على الذي كان على صلة قوية به ، حيث مدحه كثيراً ، فنراه يبعث إليه بهذه الأشواق على لسان رسوله الذي أرسله إليه بهذه الرسالة فيقول :

أيها الغائب الذي كثر الشو ق إليه وغالب التبريح
بى إلى وجهك الكريم اشتياق وغرام يبدو ووجد يروح
وفؤادٌ من الفراق عليل حل سوداءه وداد صحيح
يا رسولي بلغ إلى الملك الأفـ ـضل شوقي وصف فأنت فصيح
قل : تفداك أيها الوادع القلـ ـب محب خلَّفت وهو طليح

(١) ديوان العزازي : ٢٣١ .

ثم قبل تلك اليمين التي كلـ ـل نوال بجودها مفضوح[١]

في هذه الرسالة يفصح العزازي عن عميق شوقه تجاه مليكه الكريم ، فيطلب من رسوله أن يبلغه هذا الشوق الذي أضنى فؤاده ، ولكن مع كل هذه الأشواق نجد العزازي لا ينسى أنه يخاطب ملكاً ، إذ يقدم بين يديه ولاء الطاعة ، ثم يشكره على أياديه السابغة ، ويدعو له بكل خير ، وهذا ما يميز رسائله إلى الملوك عن غيرها .

المعاتبة والاعتذار:

وكما أن للعزازي رسائل يمدح بها أصحابه ويزج فيها اشتياقه إليهم ، فإن له بعض الرسائل التي يعاتبهم بها ، ويعبر فيها عما في نفسه تجاههم ، إذ يلفت أنظارهم إلى ما قد يغير من علاقاتهم ، ويفسد صحبتهم ويحول مودتهم ، فمن هذه الرسائل العتابية تلك الأبيات التي كتب بها إلى جمال الدين التلمساني[٢] :

أخ لي كان يمنحني الودادا ويحمل عني النواب الشدادا

---

(١) ديوان العزازي : ١٠٦ .

(٢) لا يوجد في كتب التراجم ترجمة مناسبة لهذا الاسم ثلاثيا كما ورد هكذا (جمال الدين يوسف بن التلمساني)،ولكن إن كان مراداً بابن التلمساني الحافظ المزي،كما ذهب إلى ذلك محقق الديوان بالترجيح معللاً لذلك بتطابق الاسم،واللقب ، والكنية التي دعاه بها العزازي في قصيدته هذه (انظر هامش الديوان : صـ : ٣٤٣) ، فإن صح ذلك فهو : الحافظ المزي أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الكلبي(٦٥٤ – ٧٤٢هـ) ، محدث الديار الشامية في عصره ،مهر في الحديث ورجاله وفي اللغة وله في علوم الحديث مصنفات ، من أشهرها:تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، وكانت وفاته في دمشق - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ١٠ / ٧٦ – ٧٧ ، وفوات الوفيات : ٤ / ٣٥٣ – ٣٥٥ .

وكـان إلـى أوفـى النـاس بـراً وأكـثرهم حنـواً وافتقـادا

وكنـت أشـدهم شـغفاً وحـبّاً وبـه ، وأصـحهم فيـه اعتـقادا

وأوفـاهم محـافظة وعـهداً وأوفـرهم رجـاء واعتمـادا

فبـدَّل ذلـك الإخـلاص مـذقاً وصـير تلكـم القربـى بعـادا

وحملـني مـن الإعـراض عبئـا كـأني قـد خـلقت لـه فـؤادا

ومـا أحلـى الحبيـب إذا تـجنى وفي هجـران عاشـقه تمـادى

ألا لا تنـقلوا عـنى عـتابا لـه ، ودعـوه يفعـل مـا أرادا[1]

لقد أخذ العزازي في تعداد صفات صاحبه ، ودرجة قربه منه ، وعلاقته الوطيدة به حتى وسمه بالأخ ، لكن هيهات قد تبدلت الأمور ، وانقلبت رأساً على عقب ، وحدثت القطيعة ، واتسعت الهوة ، ثم كان الإعراض والجفاء ، لكننا نجد العزازي في إطار معاتبته لصديقه على هذه الأمور يتلمس له الأعذار ، لعله يتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، فكما قال سيدنا معاذ بن جبل : " خير الرجال الألوف وشرهم العزوف"[2].

وإذا كانت بعض رسائل العزازي تحمل عتابا إلى بعض أصدقائه ؛ فإن بعض رسائلهم إليه تحمل الغرض ذاته ، فنجد من أصدقائه من يعاتبه على ترك الزيارة فقد بعث إليه ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) في هذا الصدد قوله :

وإنـي غنـى عـن تفقـد معشـر سـوى أحمـد لى حاجـة بافتقـاده

(١) ديوان العزازي : ٣٤٣ .
(٢) الصداقة والصديق : ٢٧٩ .

فما باله قد مال عن حسن ظنه وحسن تأتيه وحسن اعتقاده

وذو خاطر كالماء في جريانه ولكنّه كالنار عند اتقاده

ولو زار يوما ردَّ قلبي لوكره وردَّ على جفني لذيذ رقاده

فقد حكم التسهيد ما غاب وجهه على هدبه مع حاجتي بانعقاده[1]

فأجاب العزازي على تلك الرسالة معتذراً بقوله :

جواب ولىٍّ مخلص في ولائه وخدمة خلٍّ صادق في وداده

إلى فارس الشعر الذي لست لاحقاً وإن كنت من فرسانه ببداده

أمير قوافيه ووقع كلامه كسمر عواليه وبيض حداده[2]

كما نجد نجم الدين أحمد يعاتبه على ترك الزيارة حيث قد دعاه إلى مجلس جمع فيه كل الفضلاء فقال :

إني لأعجب من حظى لديك وما أوتيت من أدب يا جامع الفضلا

في منزل لك فيه دعوة صعنت يا خير من لصنيع العرب قد بذلا

أهملتني حيث لم أذكر هناك يا متبعاً هذه دعواته الأولا

أو أطرحت لأمر لست أعرفه هل كنت قلى معدوداً من

لو لم يكن ذاك كان الوقت يا باذلا لم يكن من جملة النحلا

لهفى على الأدب المخوض زبدته ما بينكم لا على ما شم أو

---

(١) كتاب السفينة : ٢ / ٥٠١ .

(٢) المصدر السابق : ٢ / ٥٠٢ .

(٣) السفينة: ٢ / ٥٢١ .

في الرسالة السابقة ما يؤكد على العلاقات الوطيدة بين العزازي ومعاصريه، فقد دعاه الأديب نجم الدين أحمد إلى مجلس من مجالسه الأدبية ، ولكن العزازي لم يحضر لعذر ما ، ونلمح في الرسالة الاحترام والتقدير كقوله (في منزل لك) ، وكذلك عبارات التبجيل والتي تعد أحد الخصائص العامة للرسائل الشعرية في ذاك العصر ، فقد عبر عنه بأنه جامع لكل فضل ، ثم نجده يعتب عليه لعدم الحضور منوها لقبول عذره ، حيث ذكر أنه قد يكون عدم حضوره لسبب ما من الأسباب لا يعرفه ، ولعله خير ، وفي نهاية الرسالة يؤكد على أن حضوره كان مهماً للغاية ، إذ هو من دواعي السرور ، وكان بلا شك سيضيف جديداً للأدب والأدباء .

ويجيب العزازي على هذه الرسالة معتذراً بقوله :

يا فاضلاً ملأت عيني فضائله ... ويا أديباً يجيد المدح و الغزلا

قلدتني من قوافيك التي بهرت ... وألبستني من وشيها حللاً

عاتبتني في أمور جد واجبةٍ ... على حتى لقد غادرتنى خجلا

لست الملوم وخير القول أصدقه ... أنا الملوم الذي يستوجب العزلا

وقد ذهلت فسامحني فأنت فتى ... يقيم عذر أخيه كلما ذهلا

أعاذك الله من عين إذا غفلت ... عن المكارم أو قلب إذا اشتغلا[1]

لقد جاء في هذا الجواب مكافأة الإحسان بالإحسان ، فنثر العزازي على صاحبه أسمى آيات الشكر والثناء ، وهالات المديح والعرفان ، بما قد قدم له من مديح وعظيم امتنان ، ثم أبدى القبول لعتابه ، والخجل

(١) المصدر السابق: ٢ / ٥٢١ .

من عدم حضوره وامتثاله ، ثم طلب منه العفو وقبول العذر ، ودعا له بعدم الغفلة والانشغال عن المكارم .

وعاتبه على ترك الزيارة أيضاً الطبيب أحمد بن أبى الحوافر[١] فقال :

ألا يا شهاب الدين شوقي مبرح إليك فهل وقت مضى بك يرجع

يقر لعيني أن أراك ومسمعي لطيب حديث منك يصغى

فلا تحسبن إن غبت عنى أنني وإن صح منك الود بالود أقنع

فللعين حظ أن تنله فإنها تقربه أوقاتها فهي تدمع

فزرني تفضلا منك في كل جمعة وإن كنت لا أرضى بذاك وأقنع

بقيت رفيع القدر في خفض عيشةٍ بك الفضل يحيى خالداً ويمتع[٢]

لقد حرص أصدقاء العزازي على تبادل الزيارة معه ، ولم يقتصر ذلك على فئة معينة من المجتمع ، بل كل الطوائف كان منها الأصدقاء الذين يحرصون على مودته ، فهذا الطبيب يبعث إلى العزازي بأشواقه الحارة ، ويعتب عليه في ترك الزيارة ، ويتمنى منه أن يبقى على الود والوصال ، وأن يراه في كل أسبوع وإن كان هذا غير كافٍ ، إذ يريد أن يراه في كل يوم ، ثم دعا له في نهاية هذه الرسالة ببركة العيش ورفعة القدر .

---

(١) هو : ابن أبي الحَوَافر عثمان بن أحمد بن عثمان بن هبة الله ، الشافعيّ القيسي جمال الدين ابن أبي الحَوَافر : طبيب ولد عام ٦٢٩ هـ وتوفى عام ٧٠١ هـ - الأعلام للزر كلي : ٤ / ٢٠٢ .

(٢) السفينة : ٢ / ٥٤٤ .

ويجيب العزازي على هذه الرسالة معتذراً بقوله :

لقد وردت كالورد باكره فنم عليه نشره المتضوع

ووافت كما وافى النسيم عشية ورقت كما رق السلاف المشعشع

كساني شهاب الدين منها ملابسا يخار ثوب الربيع المجزع

يعاتبني كيف انقطعت تفضلاً وأحسابه أسبابه ليس تقطع

وإن منعتني عن حقوق جميلةٍ حوادث دهر والحوادث تمنع

فإني إلى إذابه متشوق وإني إلى أخباره متطلع

وما زال طرفى يجتلى حسن وجهه وفى روض هاتيك الفضائل يرتع

وإن لم أجالس ذلك الفضل بمن أتملى أو بمن أتمتع[1]

في الأبيات السابقة اعتذار من العزازي على عتاب الطبيب أحمد بن أبى الحوافر ، ولا يخفى ما في الأبيات من التزام في المحافظة على المودة والمحبة بينهما فيشكره أولا على رسالته السابقة ، ثم أشار إلى جودة شعره وحسن تراكيبه ، ثم قدم الاعتذار عن ترك زيارته ذاكراً أن السبب من وراء ذلك هو حوادث الدهر ونوائبه ، ولكنه دائما يطالع أخباره ، ويتشوق إلى لقائه ، فمجالسه حافلة بالأدب والأدباء ، وهى بلا شك مجالس ممتعه ، يفيد منها العزازي ويحتفي بها .

وعاتبه على ترك جوابه ابن الوحيد[2] فقال :

---

(١) السفينة : ٢ / ٥٤٤ ــ ٥٤٥ .

(٢) هو : ابن الوَحِيد محمَّد بن شريف بن يوسف ، شرف الدين ، ابن الوحيد : خطّاط ، كان يضرب المثل بحسن كتابته له نظم ونثر ، ولد بدمشق عام (٦٤٧ هـ) ، وتتلمذ لياقوت المستعصمي بالعراق ، واتصل بخدمة بيبرس الجاشنكير قبل السلطنة

يـا مانعـاً عنـى جـواب تـنائي هـلا رأيـت أجـابتى لنـدائي

أرسـلت بـيتي حكمـة قـد ضـمنا مـدحاً يظـن مجانـة الخلطـائى

ولقـد تقسـمت الظنـون لمنـع مـو لانـا جـوابي فاستمـع أنبـائي

إلى أن قال :

إن كان تركك للجواب لهـذه فلقـد ظلمـت أخـاً وعـبد ولا

ولـئن أنفـت فليـس ذاك ببدعـة فعـزاز منشـى عـزة وعـلاء

شـح الخليـل علـى مـودة خلـه كـرم وأنـت مقـدم الكرمـاء

أو كنت أهملت الجواب فليس من شـرط الوفـاء وأنـت آت وفـاء

أعتـب أخـاك وقـم بواجـب حقـه لا سيمـا ودي وصـدق إخـائي[1]

لم يتوقف عتاب العزازي في المراسلات التي دارت بينه وبين أصدقائه على ترك الزيارة فحسب ، بل امتد ذلك أيضا إلى جوانب أخرى كالعتاب على ترك الجوب على بعض الرسائل ، ونلحظ في الرسالة السابقة أيضا مراعاة التعظيم والاحترام ، حيث يقول له إن كنت تركت الجـواب على مراسلاتي إليك لانشغالك فقد قسوت على أخ لك وعبد لولائك ، وإن كان ذلك تكبرا فمعك الحق لأنك ذو حسب ونسب ورفعة وكرم تجعلك مقدما على الآخرين ، وإن كان ذلك عن خطئ منى فمن الوفاء أن تظهر ذلك وتعاتبني عليه ،فهذا الصنيع بلا شك سوف يحافظ على الود والصداقة .

وتوفى عام(٧١١ هـ)- الأعلام للزر كلي : ٦ / ١٥٨ .

(١) السفينة : ٢ / ٥٣٥ .

فأجابه العزازي على عتابه هذا قائلا :

أرسلتـــها كالروضـــة الغنـــاء وزففـــتها كالغـــادة الحســـناء

عـــذراء ترفـــل في وشـــائع حلـــة تعـــزى صـــناعتها إلى صنـــعاء

إلى أن قال :

يـا ابـن الوحيـد لـك الفضـــائل فاجذب إلـيـك مفـادة الفضـــلاء

جـــاءت قوافيـــك الـتي ضمنـتها عـتبي وقـــد ألحقتـــها بثنائـــي

جـاءت قلـــما أن قـرأت سطـورها أطرقـت مـن خـجل وفـرط حـياء

عندي لك العتـبى إذا عاتبتنـي بضراعـــة ممزوجـــة بولائـــي

فاصـفح عـن العبـد المقـر بذنبـه وبعـــجزه وارجـع إلى الإغضـاء[1]

وكعادة العزازي نجده يعتذر من عتاب ابن الوحيد السابق ويعترف له بكل فضل، ثم يشكره على تضمين عتابه إياه الثناء الجميل ، ومن ثم فقد اعتراه الخجل والحياء لما وقف عليه ، ولهذا نراه يبدى قبوله لعتابه ، مقراً بخطئه على عدم جوابه ، طالباً منه الصفح والعفو .

وفي إطار حرص العزازي على الإبقاء على الصلة والمودة بينه وبين أصدقائه نجده في سياق العتاب يعتذر من صاحبه قبل أن يبدى له شيئاً ، و ذلك خشية أن يكون قد بدر منه أمرا أغضبه ، فيقول معتذراً :

أبـا الحجـاج لا ينسـيك عتـــب وموجـــــودة أنـــــاة واتِّئـــــادا

(١) السفينة : ٢ / ٥٣٥ ــ ٥٣٦ .

وســـامحني بمـــا أنكـــرت منـــى فكـــم قـــد سامـــح الله العبـــادا

وإن أذنبـــت : فاللـــهم غـــفراً فعـــد وأعـــد وداداً واتحـــادا

فلـــو أنـــى قـــدرت جعلـــت خـــدي ســـجلا والدمـــوع بـــه مـــدادا[1]

فالعزازي يحاول جاهداً أن يبذل كل ما في وسعه حتى يقبل صاحبه اعتذاره، ويلح عليه أن يسامحه فيذكره بعفو الله عز وجل عن ذنوب العباد ، ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [2] ولهذا نجده يسكب العبرات في سبيل عودة هذا الصديق إليه ورجوع ورجوع صداقتهما إلى سابق عهدها .

الدعوة والمداعبة :

ويظهر لنا جلياً من خلال مراسلات العزازي مع معاصريه أنه كان كثير الأصدقاء محباً لمجالسهم ، لذا راح يدعوهم في بعض هذه الرسائل إلى مآدبه الأدبية ، فيقول داعياً أبا الحسين الجزار لأحد هذه المآدب قائلاً :

يـا أديبـاً لـه مـن الأدب المحـ ـض وإن عـز صـفوه ولبابـه

وكريـماً كـأن كفـيه بحـر فـاض تيـاره وزاد عبابـه

نحـن في مجلـس يطـول علـى هـا م الثريـا أركانـه وقبابـه

وهـو مشـف علـى بلـوغ مشيـب ومتـى مـا حضـرت عـاد شـبابه[3]

(١) ديوان العزازي : ٣٤٤ .
(٢) من الآية رقم (٢٢) من سورة النور .
(٣) ديوان العزازي : ٣٢١ .

لقد كان جل أصدقاء العزازي المعاصرين له من الشعراء والأدباء ، ففي الرسالة التي بين أيدينا نجده يدعو هذا الصاحب ، ويغدق عليه من النعوت والأوصاف ما فيه إغراء له ، ويجعل تألق هذه المجالس مرتهن بحضوره .

وكذلك نجده يدعو إلى هذه المجالس الأدبية الشاعر جمال الدين التلمسانى :

قد أصبحت في منزلي جرة فككت عن خمرتها طيفها

وباكر الطاهي بسكباجةٍ كثرت من أجلك يقطينها

فأت بارسالى القوافي وإن لم تأت أرسلت شياطينها[1]

في هذه الدعوة نلحظ روح المداعبة وخفة الظل ، وكأن العزازي يدعو صديقه الشاعر جمال الدين التلمسانى إلى مأدوبة طعام وشراب ، وهى في الحقيقة مجالس أدبية لاسيما أنه قد ختم رسالته بذكر القوافي وشياطينها .

ونجد الشاعر جمال الدين التلمساني يتحلى بمثل خفة الظل والروح الطيبة في جوابه على رسالة صديقه السابقة ، فيشير إلى احترام العزازي له وإشادته به وتقديره لجهوده الأدبية ، ثم يختم جوابه بهذه الفكاهة حيث يستبعد أن ترسل الشهب شياطين، وفي التعبير بالشهب إشارة إلى العزازي فهو أحد الشهب السبعة المشهورة في هذا العصر ، فيقول :

(١) السفينة : ٢ / ٥٤٣ .

يـا مـن قوافيـا غـدت شوقـة غـــدت قوافيـــه سلاطينـــها

ومـذ براهـــن سهامـــا فـــما يرمـــين أعراضـــاً ويخطيـــنها

قـل لـي شـهاب الـدين هـل جـائز أن ترســل الشــهب شــياطينــها[1]

ثم بعد أن أرسل إليه بهذه الرسالة نجده يلبى دعوته ويمثل بين يديه ويحضر مجلسه .

وأقام العزازي مجلساً أدبياً على شرف الأديبين جمال الدين التلمسانى، وسراج الدين الوراق ، وبعث إليهما يستدعيهما ، فلبى الدعوة ابن التلمسانى وحضر المجلس بينما لم يحضر ابن الوراق ، فبعث يعتذر إليه بهذه الرسالة :

كـان عزمـي بـأن أبكـر للـوعـ ـــد بكـــور الهـــراس والفـــوال

وأوافـى للشـغل قبـل القـرارى ى لتـــزداد أجـــرة الجـــوال

فثنـانى . كفيتـمـا . ألـمٌ سـد طـريـــق الأهـــواء بالأهـــوال

ورمٌ عـاد نصـف وجهـي منـــه مثـل كيـس الضـنين بالأمـــوال

فلزمـت الفـراش منـه لـزوم الـ ـواو مـن قبـل ردفـها المتـوالي

ولعمـري زاحمتـم الـبر في دعـ ـوة شيـــخ أجـــابكم بـالوالي

في ليـــالٍ لـــو أنهـا دفعـتني وسـط ظهـري وقعـت في شـوال[2]

في هذه الأبيات يعتذر سراج الدين الوراق للعزازي عن عدم حضوره لمرض قد أصابه في وجهه ، ونتج عنه ألم شديد مما جعله يلزم

(١) السفينة: ٢ / ٥٤٣ .

(٢) المصدر السابق : ٢ / ٥٥٦ .

الفراش ، وكان كله عزم وتصميم في تلبية هذه الدعوة الكريمة لولا أن أثناه هذا المرض .

وقد يوجه العزازي الدعوة إلى أصدقائه من أجل التحدث والمسامرة معهم في أمور تجرى بين الأصدقاء بعضهم مع البعض ، وذلك كهذه الرسالة التي بعث بها إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) يستدعيه فيها بقوله :

قل للأمير جزاك الله صالحة عما اصطنعت وما أسديت من منن
هل أنت زائر إخوان قد اجتمعوا على ولائك في سرٍّ وفي علن
إذا أفاضوا حديثاً بينهم حسناً كان الأحق بأن يدعى إلى

فلبى الدعوة وحضر ، وكان قد أجابه بهذه الأبيات :

يا من دعاني وناجاني بأسطره وضمنها درر جلت عن الثمن
وراح بورد مما خطه نبذا فكان فيها التذاذ العين والأذن
وكان كالروض أهدى زهرة إليّ وهو ندٍ غض القطاف

وكما أن العزازي يدعو الأدباء إلى مجالسه الأدبية ، نجدهم أيضاً يدعونه إلى مجالسهم ، وما ذلك إلا لحسن قوله ، وظرافة طبعه ، وخفة ظله، حتى يسرى عنهم ، ويؤنسهم بجميل لفظه ، وبديع نظمه ، فيقول في السلطان الملك المنصور أبى المعالي ناصر الدين محمد وقد دعاه إلى مجلسه فوق القبة المشرفة على العاصي :

(١) السفينة : ٢ / ٥٦٧ .
(٢) المصدر السابق ذاته والصفحة

لم أنس إحسان ابن محمود وقد وافيته تحت الظلام الداجى

فرأيته من فوق قبة ملكه وكأنه للفرقدين مناجى

في ليلة غراء بت منادماً رب السرير بها ورب التاج

فكأنما صعد السماء محمد وكأنما هي ليلة المعراج[1]

فالعزازي يذكر تلبيته لدعوة الملك ، وإكرامه له ، والهيئة التي رأى الملك عليها وهو في قبته ، في ليلة جميلة أشبهت في روعتها ليلة المعراج بالنبي (ﷺ) إلى السماء مع فارق التشبيه .

الاستيهاب والإهداء :

ومن المضامين التي وردت في الرسائل الشعرية التي جرت بين العزازي وشعراء عصره ، الاستيهاب وأقصد به طلب العطية ، والإهداء أن يبعث إلى صديقه بهدية مشفوعة برسالة شعرية ، ومن ذلك حينما بعث الملك الأفضل وهو في حماة بـ (زبدية بامية) طبخها بنفسه ، وعلى إثر ذلك بعث العزازي إليه ببرقية شكر على صنيعه هذا ، فقال :

أرسلتها سراً فكا ن شكرها علانية

زبدية واحدة قد أشبعت ثمانية

بامية صنع يد للمكرمات بانية

لها شذى رائحة فائحة في الآنية

جاءت وعندي عصبة كأنها زبانية

(١) ديوان العزازى : ٦٥ .

يقـــــول كـــــلٌ ولـــــه عيـــــن إليهـــا رانيـــــة

يـــا ليـــلة الوصـــل بهـــا هـــــلا رجعـــت ثانيـــــة[١]

ولا شك أن هذه الأبيات تعكس مدى قرب العزازي من الملك الأفضل ، وذلك راجع إلى شخصيته الاجتماعية ، وحسن تعامله وظرفه ، مما جعله محبوباً ومقرباً من جميع الطبقات الاجتماعية .

وبعث العزازي إلى ناصر الدين بن النقيب بهدية مشفوعة بقوله :

العبـد هـاداكم بـدون محلكـم فتجـاوزوا عـن نـزره وقليلـه

وإذا أردتم جـــبره أو شـــئتم إكرامـه فتصـدقوا بقبولـه[٢]

فأجابه بقوله :

وافـى تفضـلك الـذي عودتـه مـن دق مـا أهديـته وخليلـه

وسلامـة المـولى أجـل هديـه وجـاءت إلى ممـلوكه وخليلـه

والله يعلـم أنـني متفـائل بالخيـر يـوم قدومـه ووصـوله[٣]

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فنجد ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) يبعث بقطائف إلى العزازي وكان ذلك في شهر رمضان ، وكتب إليه بقوله :

إن أكـــن أرسلـــت نـــزرا تافهـــاً دون محـــلك

فالـــذي أوجـــب هـــذا ثقتـــي مـــنك بفضـــلك

ولقـــد يصغـــر عـــندي كلمـــا يهـــدى لمـــثلك[٤]

(١) ديوان العزازى: ١٠٢.
(٢) السفينة : ٢ / ٥١٩ .
(٣) السفينة : ٢ / ٥١٩ .
(٤) المصدر السابق : ٢ / ٥١٩ .

فلما وقف على هذه الرسالة أجاب عنها بقوله :

وصـــــلتني مـــــن هدايـــــا ك ونعمـــــــاك وفضـــــلك

مـــا حـــــلا مثـــل سجايـــا ك ومـــــا طـــاب كأصـــلك

جـــــــعل الله عطايـــــــا ك عـــــلى قـــــدر محـــــلك

مثلـــــما غـــــادر قـــــولي وهـــــو مســـبوق بفـــــعلك[1]

وهكذا نجد أن مراسلات التهادي كانت تجرى بين الشعراء في العصر المملوكي تعبيراً عن الحب والفرحة ، وتدل على دوام المودة والصداقة فقد قال (×) : " **تَهَادُوا تَحَابُّوا** "[2] .

الألغاز والأحاجي :

ومن المضامين التي طرقها العزازي في مراسلاته الألغاز ، وهو أمر طبعي بين الأصحاب ، إذ يتخذون الأحاجي سبيلاً للترويح عن أنفسهم، ورياضة ماتعة لأذهانهم ، وتسلية يقضون بها أوقات فراغهم .

(١) المصدر السابق : ٢ / ٥٢٠ .

(٢) الحديث رواه أبو هريرة وقال الألباني حسن ، ينظر الأدب المفرد ، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ – ١٩٨٩رقم الحديث٥٩٤ : صـ ١٠٨ .

وكتب شهاب الدين العزازي إلى ناصر الدين ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) ملغزا في شبابة وأحسن :

وما صفراء شاحبة ولكن يزيّنها النّضارة والشباب
مكتّبةٌ وليس لها بنان منقبةٌ وليس لها نقاب
تصيخ لها إذا قبّلت فاها أحاديثاً تلذّ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها وما هي لا سعاد ولا الرّباب[1]

فأجابه ناصر الدين ابن النقيب:

أتت عجمية أعربت عنها لسلمانٍ يكون لها انتساب
ويفهم ما تقول ولا سؤال إذا حقّقت ذاك ولا جواب
يكاد لها الجماد يهزّ عطفاً ويرقص في زجاجته الحباب[2]

ومن هذه الألغاز قول العزازي ملغزاً في القوس والنشاب :

ما عجوزٌ كبيرةٌ بلغت عمـ راً طويلاً وتتّقيها الرجال؟
قد علا جسمها صفارٌ ولم تشـ ك سقاماً ولا عراها هزال
ولها في البنين سهمٌ وقسم وبنوها كبار قدرٍ نبال
وبنوها لم يشبهوها ففي الأ مّ اعوجاجٌ وفي البنين اعتدال[3]

(١) فوات الوفيات : ١/ ٩٧.
(٢) المصدر السابق ذاته والصفحة .
(٣) المصدر السابق ذاته : ٤/ ٦٨ .

تلك هي الموضوعات التي جرت بشأنها المراسلات الشعرية بين العزازي وشعراء عصره ، والتي قمنا برصدها خلال هذا الفصل .

السمات الفنية للمراسلات الشعرية عند العزازي

اتسمت الرسائل الشعرية التي دارت بين الشهاب العزازي ومعاصريه بعدة سمات ، منحتها القوة ، وأكسبتها الخلود ، وأكبر الظن أنه لولا اتصافها بما سيشار إليه من سمات فنية لما كانت محط

اهتمام "ابن مبارك شاه" [١] ، فيختار منها فصلا كاملا في موسوعته المسماة بالسفينة[٢] ، ومن المعلوم جيداً أن أصحاب الاختيارات الشعرية يضعون نصب أعينهم هذه السمات ، فلا ننسى المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، وما تتسم به من قوة ، ومن هذه السمات ما يخص الألفاظ والأساليب، ومنها ما يخص المعاني والأخيلة ، ومنها ما يخص البناء الهيكلي، ومنه ما يخص الإيقاع الشعري، ونبدأ أولاً بإلقاء الضوء على الألفاظ والأساليب .

الألفاظ والأساليب :

إن الناظر في الرسائل الشعرية التي تبادلها الشهاب العزازي مع معاصريه ليشعر أنها قريبة من نفسه ، وذهنه ، وأرى أن للألفاظ دوراً فاعلا في ذلك ، وكيف لا ، والألفاظ تتسم :

(١) بالجـزالة ، وهى تعد من أهم السمات اللفظية في هذه الرسائل ، فألفاظها في معظمها تكتسب هذه السمة ، وذلك لأن الذين يتبادلونها معه من كبار الشعراء والكتاب المعاصرين له ، ناهيك عن الرسائل

(١) هو أحمد بن محمد بن حسين بن إبراهيم بن سليمان المعروف بابن مبارك شاه الحنفي ولد يوم الجمعة العاشر من ربيع الأول عام (٨٠٦ هـ) بالقاهرة ، عالم من علماء القرن التاسع الهجري ، وشاعر مجيد له نظم جيد ، توفى – رحمه الله –في ربيع الأول عام (٨٦٢ هـ) – راجع نظم العقيان في أعيان الأعيان : ٥٤ ، والضوء اللامع : ١ / ٨٦٢ .

(٢) هو كتاب مختارات شعرية يتكون من أربعة عشر مجلداً حقق منه ثلاثة أجزاء بكلية اللغة العربية إيتاى البارود ، ومن أجزائه من هو قيض الدراسة الآن ،ومنها ما يزال مخطوطاً ، أما عن نسبة الكتاب إلى ابن مبارك شاه فهذا مما لاشك فيه – راجع الأعلام : ١ / ٢٢٩.

التي بعث بها إلى الأمراء والشخصيات العامة واللامعة في عصره ، وهذا بالطبع قد استدعاه إلى إطالة النظر فيها لإخراج أفضل ما عنده ، هذا بالإضافة إلى أنه شاعر مطبوع أشاد بشاعريته كثير من النقاد كما ذكرت من قبل ، فمن ينظر في أي من هذه الرسائل يدرك بسهولة ويسر أن الألفاظ جاءت فيها معبرة ، ومفصحة عن المعاني والغرض الذي أنشئت من أجله، وذلك كما جاء في هذه الرسالة التي بعث بها إلى " ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) " يمدحه فيها ويسترشد به في بعض الآراء ، يقول :

ألا قل للأمير أبى على ... أخي الإحسان والنعم الغزار

أيا ابن السابقين إلى المعالي ... ويا ابن السامقين على الفخار

ويا رامي العداة بنار حرب ... مسعرة ويا حامى الذمار

ومقتحم الوغى والسيف دامٍ ... وشاي غلة الأسل الحرار

ويا صافى الخليقة والسجايا ... ويا زاك الأرومة والنجار

ويا من شعره أحلا مذاقا ... وأشهى من معاقرة العقار

أرى نفسي تطالبنى برأى ... وتحرقنى بنار أي نار

فعجل بالرسول إلىّ واشفع ... بنات النجل يا بن الجلنار

فإني مذ وردت عليك ضيف ... وإنك لي وللضيفان قار

وإن أنكرت من أدبي فسامح ... على السقطات أبناء النجار[1]

(١) السفينة : ٢ / ٤٩٨ .

مما لا شك فيه أن ألفاظ هذه الرسالة تتسم بالجزالة، وتتسم كذلك بالقوة ، فمن ينظر إلى الألفاظ : الغــزار، الفخار، رامي، مقتحم ، الذمــار، الوغى، الأرومة ، زاك ، العقار ، وللضيفان ، قــار، الجلنار ، يلمس فيها الجزالة ، حيث إن العامة تفهمها ، ولا تأتى بها في أحاديثها، ويدرك كذلك أنها أفصحت إفصاحاً تاماً عن معانيها ، وعما سيقت له من أغراض ، وكذا التفخيم الذي أراده الشاعر في إطار وصف ممدوحه .

(٢) الإيحــاء : وهو أيضا من السمات اللفظية في الرسائل الشعرية التي تبادلها شاعرنا مع معاصريه حيث نجد أن اللفظة المدرجة في أبيات هذه الرسائل لا تقف عند معنى معين ، بل تشعر القارئ بكثير من المعاني التي تخدم النص ، وتوضح هدفه ، وبذلك يكون الشاعر قد فتح أمامنا كثير من الدروب ، لنعمل أذهاننا ، ونحلق في عالمه الشعري على أجنحة العواطف السامية ، ولعل في الرسالة التالية التي بعث بها العزازي إلى شهاب الدين التلَّعفري خير دليل على ما أذهب إليه :

قــادني نحــو الشــهاب اشتــياق زائــد لم يبــق لــي عنــه صــبرا

ودعــــــاني للزيــــــارة داع أي داع فلبــــــيت عشــــــرا

زر شــهاب الــدين تلــق كريــماً باســطاً للضــيف صــدراً وعــذراً

ملــك الشــعر الــذي جــر جيــشاً للقــوافي والفضــائل مجــراً

فــإذا لاقيــت لاقيــت ليــثاً وإذا جــاريت جــاريت بحــراً

ومتــى اســتجديت تســتجد غيــثاً ومتــى اســتهديت تســتهد بــدرا

عش شهاب الدين عمراً فعمراً وابق يا ابن النجم دهراً فدهرا[١]

فكلمة (اشتياق) فيها من الإيحاء ما يسترعى انتباهنا ، ويثير عواطفنا تجاه الشاعرين وما يجمعهما من علاقة وطيدة وصلت إلى حد العشق ، مما جعل العزازي يعبر عن ذلك بالاشتياق الزائد الذي قاده نحو هذا الصديق ولم يجد عن ذلك بد ، وكلمة (جيشا) أيضا فيها من الإيحاء ما فيها ، فهي توحي بالكثرة ، والقوة ، والحرب والقتال ، وكأن الشاعر قصد إلى هذه اللفظة قصدا لإحداث إثارة في ذهن المتلقي بأن صديقه متعدد الخلال أيضا فهو كثير القصائد قويها و متعدد الفضائل سميها ، ولا يخفى ما في كلمة (ليث) من إيحاء بالشجاعة والقوة والجرأة ، وكذلك توحي كلمتي (بحر – غيث) بالجود والكرم والعطاء بلا حدود ، ولفظة (بدر) توحي بالجمال واكتمال الأوصاف ، وكل هذه الألفاظ التي ساقها الشاعر في رسالته وما تثيره من معاني في الذهن ارتبطت بها منذ القدم أنها صفات متأصلة في صديقه الذي بعث إليه بهذه البرقية .

والحق أن من يتفرس في ألفاظ هذه الرسائل التي تبادلها شاعرنا مع أصدقائه، ويتريث أمامها ستحمله إلي عالم من المتعة الشعورية ، واللذة الفنية بما تنطوي عليه هذه الألفاظ من إيحاء غير قليل .

(٣) الفصاحة : وهى سمة تنسحب على كل ألفاظ الرسائل الشعرية التي تراسل بها العزازي مع أقرانه ، وإن وجدت ألفاظ تخرج عن هذه

(١) السفينة : ٢ / ٥٠٢ .

السمة فهي لا تكاد تذكر ، ولعل منها كلمة (الطَّبَرْزَدُ)، وتعنى " السكر " والكلمة معرَّبة عن الفارسية، فأصلها " تبرزد " بالفارسية كأنه نحت من نواحيه بالفأس ، والتبر بالفارسية أي الفأس كما ذكر ابن منظور(١) .

فإذا تخيرنا رسالة ما من رسائله الشعرية التي تراسل بها مع أصدقائه ، ونظرنا فيها فلن نجد فيها أية لفظة لا تنطبق عليها سمة الفصاحة ، فكل الألفاظ في كثير من الرسائل متحققة فيها هذه السمة ، فلا نجد لفظة متنافرة الحروف ، ولا أخرى مخالفة للقياس ، ولا ثالثة غريبة المعنى بالقياس للغة في عصر العزازي ولنأخذ مثالاً، ولتكن هذه الرسالة التي بعث بها إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) يشكو إليه من وقعت أوهنت يده ، فيقول :

قل للأمير الذي خلائقه ... تعبق طيباً كالعنبر الشمل
ومن له راحة مواهبها ... كم حققت للعفاة من أمل
ومن يهز الجماد منطقه ... العذب إلى أن يميل كالثمل
إن يدي أصبحت معلقة ... في عنقي أو بطلت من عمل
وزاد آلامها على إلى ... أن أضعفت قوتي ومحتمل
أودت بها وقعت الحمار فما ... شككت أني في وقعة الجمل(٢)

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور – دار صادر بيروت – الطبعة الثالثة عام ١٤١٤هـ : ٣ / ٤٩٧ .
(٢) السفينة : ٢ / ٥٢٨ .

وهكذا نجد أن ألفاظ هذه الرسالة فصيحة ، ومقبولة لدى كل ذي ذوق سليم، وقريبة من أذهان العامة والخاصة ، هذا فضلاً عن استحيائه للتاريخ الإسلامي القديم ، بذكره لموقعة الجمل ، وتوظيفه لها في النص بصورة تميل إلى الفكاهة .

(٤) الائتلاف : وهو أحد السمات اللفظية أيضاً في رسائل العزازي الشعرية ، حيث يجد القارئ لهذه الرسائل أن كل لفظة مؤتلفة مع ما قبلها وما بعدها من ألفاظ ، فلا هي نابية في موضعها ، ولا قلقة في جملتها ، فكل لفظة متمكنة في مكانها متعانقة مع ما قبلها ، وتشدها إليها ما بعدها حتى نصل إلى نهاية البيت الشعري فنجد كلمة القافية جاءت كالشيء الموعود المنتظر ، وتسلم فكرة البيت الذي يليه وهكذا حتى نهاية الرسالة، وهذا ما منح رسائل العزازي الشعرية سمة أسلوبية ، وهي السلاسة ، وحسن السبك ، ولنأخذ مثالاً على الائتلاف الرسالة التالية التي بعث بها إلى شهاب الدين التلَّعفريّ جواباً على رسالة قد بعث بها إليه من قبل :

يا شيخ أهل الشعر قاطبة ويا أو في الورى أدباً وأسخى الناس

أنت امرؤ شيدت العلى ورفيعها بدعائم موطودة وأساس

ولأنت ذو علمٍ لبحر زاخر ولأنت ذو حلم كطود راس

وردت قوافيك التي ذللتها وأخالها من قبل ذات شماس

جاءت تخبر عن فصاحة جرولٍ وأنت تحدث عن ذكاء إياس

وسمعت ما قاسيت من سقم ومن ألم فـــبت لمـــثل ذاك أقاســـى

ولو أنني نبئت جئـــتك عـــائداً ولو استطعت لكنت نعم الأســـى

فالله يصرف عنك أسباب الـردى ويكـــف عـــنك يـــد الزمـــان

لا شك أن الألفاظ هنا مؤتلفة أشد الائتلاف ، ومتسقة أعمق الاتساق ، فكل لفظة موضوعة في المكان الذي يتطلبها وينابيها ، ولا سيما ألفاظ القافية التي جاءت متمكنة ، ومن ثم شعرنا كأن الألفاظ حيكت من نسج واحد .

تلك هي أهم السمات اللفظية في رسائل العزازي الشعرية ، وقد أثرت هذه السمات تأثيراً كبيراً في الأساليب ، إذ اللفظة جزء من الأسلوب ، ولا يمكن لأي أسلوب أن يتم إلا بوجود الألفاظ المتجاورة ، فإن حسنت هذه الألفاظ حسن سبك الأسلوب ، وقوى نسجه ، وإلا فلا ، وأهم ما يتسم به أسلوب شاعرنا في رسائله الشعرية :

(١) **التنوع الأسلوبي :**

لقد اتسمت رسائل العزازي بالتنوع الأسلوبي في خطابه لأصدقائه بين الخبر والإنشاء ، فأساليب الرسائل التي بين أيدينا غير ثابتة على حالة واحدة ، فلا هي كلها خبرية ، ولا هي كلها إنشائية وقد لجأ شاعرنا إلى ذلك مراعاة لمقتضى الحال ، وهذا من تمام الفصاحة ، فمثلاً معظم الرسائل التي بعث بها إلي أصدقائه تنوعت فيه الأساليب الإنشائية وبخاصة أسلوب الأمر فقد جاء بكثرة وذلك مثل قوله في الرسالة التي بعث بها إلى ابن النقيب :

---

(١) السفينة : ٢ / ٥٦٨ .

ألا قـــل للأمـــير أبـــى عـــلى أخـي الإحسـان والـنعم الغـــزار[١]

وأيضا قوله في الرسالة التي بعث بها إلى ابن النقيب :

قـل للأمـــير الـــذي خلائـــقه تعبـق طيبـاً كالعنبـر الشمـل[٢]

وكذلك قوله في الرسالة التي بعث بها إلى شهاب الدين التلَّعفري :

زر شـهاب الـدين تلـق كريـــماً باسـطاً للضـيف صـدراً وعـذراً[٣]

كما كثر في هذه الرسائل أسلوب الاستفهام وذلك كقوله في الرسالة التي بعث بها إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) يستدعيه فيها :

هـل أنـت زائـر إخـوان قـد اجتمعـوا عـلى ولائـك فـي سرٍ وفى علنٍ[٤]

وكذلك كثر أسلوب الاستفهام في الألغاز التي بعث بها إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) ، مثل قوله:

ومـــا صـــفراء شـــاحبة ولكـــن يزيّنهـــا النّضـــارة والشـــباب؟[٥]

وقوله له أيضاً :

مـا عجـوزٌ كـبيرةٌ بلغـت عمـ ـراً طـويلاً وتتّقيهـا الرجـال؟[٦]

أما الرسائل التي كانت جواباً على رسائلٍ قد وصلت إليه من معاصريه فقد كثر فيها الأسلوب الخبري ، وذلك كقوله في جوابه على رسالة شهاب الدين التلَّعفري:

---

(١) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩٨ .
(٢) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٥٢٨ .
(٣) السفينة : ٢ / ٥٠٢
(٤) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٥٦٧ .
(٥) فوات الوفيات : ١/ ٩٧.
(٦) المصدر السابق ذاته: ٤/ ٦٨ .

وافت كما وافت رسالة هاجرٍ وكما تحقق من حبيب موعد

وكما صفا عيش ونمت لذة وكما نأى واش وغاب مفند[١]

وقوله في إجابته على رسالة ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) :

أتتني مكاتبة ابن النقيب وحسبي مكاتبة ابن النقيب

يبشرني باجتماع الجسوم كما عهدت واتفاق القلوب[٢]

وقوله أيضا في إجابته على رسالة لابن النقيب (ت٦٨٧هـ) :

باكرتنى السعود في صحبة الإثـ ـنين لما وافى إليِّ سعيدُ

بقوافٍ بينى وبين معانيها إذا ما اجتهدت بون بعيدُ

أفحمتني حتى لقد غادرتنى لست أبدى فيها ولست أعيدُ[٣]

وهكذا نلمس التنوع الأسلوبي في رسائل العزازي بين القوة والرقة ، والخبر والإنشاء ، وقد انعطف الشاعر إلى هذا التنوع مراعاة لمقتضى الحال ، وتماشياً مع ما يتطلبه هذا الفن الشعري من أسس وقواعد .

(٢) **الوضوح والبعد عن التكلف :**

لقد تحقق الوضوح لأسلوب العزازي في رسائله التي بين أيدينا وذلك نتيجة لبعده عن التكلف والمعاظلة ، والتعقيد المعنوي واللفظي ، هذا بالإضافة إلى قربه فيها من التقرير والمباشرة ، وعدم الإغراق في الرمز الذي يفضى بالشعر إلى الغموض ، فأسلوب العزازي في رسائله في متناول كل إنسان ، يتسرب إلى نفسه من أقرب طريق ، ويتسلل إلى ذهنه

(١) السفينة : ٢ / ٤٨٧ .
(٢) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٥٠٠ .
(٣) السفينة : ٢ / ٥٥١ .

من أسرع سبيل ، والنماذج على ذلك كثيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر رسالته التي بعث بها إلى الأديب عمر بن مسعود بن عمر[١] :

من ضل عن طرق المكارم والعلا فليهتدي أنى سرى بسراجها

عمر الذي بلغ البلاغة وارتقى درجاتها وسرى على منهاجها

أما الفضائل فهو بيت قصيدها وطراز حلتها ودرة تاجها[٢]

فالأسلوب هنا سلس كل السلاسة ، ينسال في انسيابية تامة ، ويسير في اطراد محكم ، وسبك حسن بما تحقق فيه من رقيق اللفظ ، وبديع الجمل ، وجيد التراكيب ، وحسن إرجاع للضمائر ، ودقة توظيف لعناصر الإبداع الفني ، ومن ثم غدا الأسلوب كما نلحظ واضحاً وضوح ، الشمس في رائعة النهار، وأضحى قريباً من الأذهان ، تدرك معناه في سهولة ، وتقف على مغزاه في ارتياح .

(٣) **المحسنات البديعية :**

وهى إحدى السمات التي اتسم بها أسلوب العزازي في رسائله الشعرية فمن ينظر فيها يقف على كثير من هذه المحسنات ، منها : الطباق، والمقابلة، والجناس، والتقسيم ، ورد العجز على الصدر... والحق أن العزازي لم ينتهز كل فرصة لحشد هذه المحسنات في رسائله الشعرية ، ومن ثم لحظنا أن ما جاء منها في هذه الرسائل جاء طيعاً ، بلا تعسف ، ولا تكلف ، إذ كانت تنساب منه عفو الخاطر ووليدة ساعتها ، فمن أمثلة

(١) وهو الأديب عمر بن مسعود بن عمر المحار الكناني الحلبي ، نزل حماة ، وتوفى وتوفى بدمشق عام ٧١١هـ - الأعلام : ٥ / ٦٦.

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر : ٣ / ٦٦٧ .

الطباق - ولعله أكثر المحسنات رصداً في هذه الرسائل – قول العزازي يمدح ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) :

أيها المقتفى قوافيه ما ضر بك والله مثل تلك الضروب

أنت من جيد القريض بعيد لا أحاشيك وهو جدٌّ قريب[١]

فالعزازي يريد أن يثبت ضراعة النظم لممدوحه ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) ، وأنه لا يستطيع أحد أن يجاريه في ذلك ، ومن ثم فقد استعمل الطباق في توضيح ذلك ، حيث جعل من يقتفي أثره في نظم القريض بعيد عن جيده ، بينما أثبت لممدوحه تلك الجودة لأنه قريب من تلك المسالك يستطيعها بسهولة ويسر .

ومن أمثلة الجناس الجيد قوله في رسالته إلى ابن النقيب(ت٦٨٧هـ) :

أيا ابن السابقين إلى المعالي ويا ابن السامقين على الفخار[٢]

فالسابقين بالباء : من السبق والتقدم ، والسامقين بالميم : العلو والارتفاع على الشيء ، وبين الكلمتين جناس ، أحسن الشاعر توظيفه ، إذ لم نشعر فيه بتكلف ، ومن ثم وقع في النفس أحسن موقع .

ومن المحسنات البديعية الآسرة محسن أشرق في كثير من رسائل العزازي التي تبادلها مع أصدقائه ، هذا المحسن هو الترصيع ، ومنه قوله :

---

(١) السفينة : ٢ / ٤٩١ .

(٢) المصدر السابق : ٢ / ٤٩٨.

ولـه القـوافي الرائقـات، الرائعـا ت ، السابغات ، السائرات ، السرد[١]

وقوله :

يا صاحب الوجه الوضى ، وصاحب ـخلق الرضـي ، وصـاحب العـرف

وقد رصدنا قدراً صالحاً من نماذج هذا اللون وبخاصة في الرسائل الخاصة بالمديح .

ورد العجز على الصدر أحد المحسنات البديعية ، وهو أكثرها انتشاراً في رسائل العزازي الشعرية ، ومن أمثلته قوله رداً على رسالة التلَّعفرى :

وافـى بهـا التلَّعفـرى محمـد يـا حبـذا التلَّعفـرى محمـد[٣]

ومنه قوله في جوابه على رسالة ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) :

أتـتني مكاتبـة ابـن النقيـب وحسـبي مكاتبـة ابـن النقيـب[٤]

وقوله في رسالته التي بعث بها إلى الشاعر ابن دانيال :

يلبسـني المـدح كـل يـوم والمـدح مـن أحسـن اللبـاس[٥]

والملاحظ أن كل هذه المحسنات البديعية جاءت طيعة ، ليست فيها رتابة ، ومن ثم أخذت موقعها في النفس ، وأكسبت الرسالة جمالاً ،

(١) المصدر السابق : ٢ / ٤٨٨ .
(٢) المصدر السابق : ٢ / ٥٢٦ .
(٣) السفينة : ٢ / ٤٨٧ .
(٤) المصدر السابق : ٢ / ٥٠٠ .
(٥) المصدر السابق : ٢ /٥٦٩ .

ومنحت الأسلوب وضوحاً وبهاءً ، وأعطته الحيوية ، وأقشعت عنه الرتابة المملة .

الصور والأخيلة :

التعبير بالصورة مظهر فني قديم ، فمذ كان الشعر كانت الصورة أبرز وسائله الفنية لنقل التجربة الشعرية ، وكانت القصيدة صورة كبرى تحمل في ثناياها مجموعة من الصور الصغيرة الجزئية(١) .

وبالتأمل في رسائل العزازي الشعرية نجده فناناً مبدعاً عند استخدامه لصوره ، فلم يعمد إليها عمداً ، ولم يجعلها غاية مستهدفة ، بل كانت وسيلة فعالة لتجسيد عاطفته وإبراز مشاعره تجاه أصدقائه .

ومن أمثلة صوره التي قوامها التشبيه ما جاء في رسالته التي يعتذر فيها إلى صديقه جمال الدين التلمساني إذ يقول :

أديب كالنسيم شذاً وشعراً وكالود انتقاءً وانتقادا

وكالغيث انسكاباً وانسجاماً وكالنجم اتضاحاً واتقادا(٢)

فالعزازي يصف صديقه التلمساني بأنه أديب مفلق ، أبرز لنا ذلك عن طريق التشبيه ، حيث أتى بتشبيهات متوالية متعددة ، قريبة واضحة ، لا لقصد المراعاة ، بل لحاجة الاعتذار والمديح إلى مسايرة التقليدية .

(١) في ميزان النقد الأدبي ، د / طه أبو كريشه ، الطبعة الأولى – عام ١٩٨٦م : ١٥٩ ١٥٩ .

(٢) ديوان العزازي : ٣٥٣ .

لقد أكسبت هذه التشبيهات المتوالية السياق جمالاً وروعة ، وذلك لأنها تعضد بعضها البعض ، فبعد أن وصف ممدوحه بأنه أديب شبهه بالنسيم في عبق أدبه وشعره ، وبالود في حلاوة استخلاصه واصطفائه ، وبالغيث في انهماره ونعماه ، وبالنجم في علوه وسطوعه ولمعانه .

وعن طريق التشبيهات المتوالية يصور لنا العزازي رسالة التلّعفري الشعرية لما وافت عليه بقوله :

فكأنها ماء النعيم المشتهى وكأنها غصن الشباب الأملد

وكأنني بشذورها متوشح وكأنني بعقودها متقلد[1]

لقد أبرز العزازي صورة الأبيات الشعرية وهى شيء معنوي في صورة محسوسة ، ومما زاد الصورة حسنا وبهاء أنه أخذ في إبراز المشبه ، حيث شبه هذه الأبيات في سهولتها ورقتها بماء النعيم المشتهى ، ثم تصورها امرأة مشبها إياها في اعتدال القوام بالغصن الأملد ، ولكي يذهب العزازي الرتابة عن صورته لتعدد التشبيهات فيها ، نجده ينتقل إلى تشبيه حالته عند قدومها ، فكأنه متشح بشذورها، وكأنها عقود وهو متقلدها .

وتصوره أيضاً للتلعفري كأنه حائك ، والمدائح التي أرسلها إليه ملابس ، وتجسيده للزمان بإنسان يغنى ، كل هذه صور قوامها الاستعارة ، وذلك في قوله :

(١) السفينة : ٢ / ٤٨٧ .

أهديت لي مما تصوغ مدائحا فكأنهن اللؤلؤ المتنضد

وكسوتني مما تحوك ملابساً يغنى الزمان وذكرها يتجدد[١]

وهكذا كان دأب العزازي في حشد صوره الاستعارية حيث أتى بمعظمها متوالية كما فعل مع صوره التشبيهية ، وذلك مثل قوله :

فهو كاسٍ من المحامد والشكـ ـر عارٍ من الخنا والعيوب

في قميص من المآثر فضفا ض وبرد من الفخار قشيب

ولو أن الدجى أعير سجايا هم لقالت للأنجم الزهر غيبى[٢]

فالعزازي في هذه الصور الاستعارية يفرغ على ممدوحه العديد من السجايا والصفات بطريقة متوالية : فهو مكسي بكساء من المحامد والشكر ، كما يرتدى قميصا من المآثر فضفاضا ، عليه برد من الفخار جديد ، كل هذه السجايا تحلى بها قومه ، فهي آيات بيضاء تدل دلالة قوية عليهم ؛ لدرجة أنه لو أعطيت هذه السجايا للدجى لم تظهر على صفحاته الأنجم الزهر .

وهكذا وردت معظم صور الشهاب العزازي الجزئية في رسائله الشعرية تدور بين الاستعارة والتشبيه يستعين بهما في تجسيد صفات ممدوحيه الذين يتراسل معهم، وكذلك في تجسيد القوافي المرسلة إليه وإبرازها في صور حسية ، وقد يستعين بهذه الصور الجزئية في تكوين

(١) السفينة:٢ / ٤٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢ / ٤٩٠ .

صورة كلية مع تزينها بشيء من الحركة والحيوية ، ومن أمثلة ذلك قوله في جوابه لابن الظهير :

بأبي منك فكرة هي كالنا ر ذكاء والبارد السلسبيل
وقوافٍ كالسحر في الحدق النجـ ـل ودر النحور في التفضيل
وردت كالرياض مر عليها غب ليل فجرى ريح بليل
فأمالت عطفي كما مال بالغصـ ـن نسيم الصبا وذات الهديل
رجعت لي سن الشباب وقد قا ربت في الأربعين من الكهول
فتلقيتها بضم وتقبيـ ـل كما في بثينة وجميل[1]

في هذه الأبيات يعرض العزازي صورة كلية لرسالة ابن الظهير الشعرية حينما وردت عليه ، إذ لم تتأتى إلا من قريحة سليمة وذكاء يتقد ، ومن ثم فهي كالسحر تملك قلب من يقرأها وتسيطر على وجدانه ،وكان لإقبالها عليه إطلالة مشرقة، مصوراً إياها بالرياض الغناء مليئة بصنوف المعاني ، وما أروع تجسيده لأبياتها حيث جعلها تهز عطفه وتحرك مشاعره مشبها لها بنسيم الصبا الذي يمر على الأغصان الرطبة فيجعلها تتمايل ، وهكذا تتلاحم الصور الجزئية وتنبع الصورة من أختها وتتضامن حتى تكون في النهاية صورة كلية عامة تضامت أجزاؤها وتلاءمت عناصرها – من ألوان الرياض – وحركة النسيم – وصوت الهديل ، وكل هذه العوامل المتضافرة أدت إلى تخيله رجوع الشباب إليه بعد أن قارب سن الكهول، وهكذا يسدل الشاعر الستار على هذه الصورة الجميلة

(١) المصدر السابق: ٢ / ٥٠٧ – ٥٠٨ .

الرائعة بأن يتخيل هذه الأبيات التي أتت إليه من ابن الظهير وكأنها امرأة جميلة قدمت عليه فقام يعانقها ويقبلها كما يهيم العاشق الولهان بمحبوبه .

وهكذا رأينا العزازي فيما سبق أنه قد أحاط بصوره الحسية السابقة ، فسخر لها عوالم الحس المختلفة ، جاعلا من الحسية في التعبير منهاجه ، أساسها التشبيه والاستعارة إدراكاً منه لأهميتهما في الإبانة عن المعنى ، وإظهاره وتوضيحه وتأكيده ، سار لا يستغنى عنهما إطلاقاً ، لذا فقد أكثر منهما وأتى بهما في شكل متوالٍ إمعاناً في تعظيم صورة الممدوح الذي تراسل معه ، وإظهار رسالته في صورة لائقة ، مستعيناً في كل هذه الصور بكل وسائل الصورة المختلفة من تجسيد وتجسيم وتجريد اقتفاءً منه في هذه الصور بأثر الأقدمين .

البناء الهيكلي للرسالة الشعرية عند الشاعر :

لقد بدا لي من خلال النظر في رسائل العزازي الشعرية أنه لم يخرج فيها عن الإطار العام الذي سلكته القصيدة العربية القديمة ، حيث كان يبدأ بعضها بالغزل ، ثم ينعطف إلى الغرض الأساسي لرسالته مسجلاً اسم المرسل إليه حينما يكون هو البادئ بالمراسلة ، فمن ذلك رسالته التي بعث بها إلى ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) التي مطلعها :

هـز قـداً يميـل ميـل القضـــيب فـوق ردف يمـوج مـوج الكثيـب

وبـدا سـافراً فمـذ قابلتـه الشـــ ـمس كادت تغيب قبل المغيب [1]

(١) السفينة : ٢ / ٤٨٩ .

هذه الرسالة تعد من أطول رسائل العزازي الشعرية ، إذ تقع في أربعين بيتاً، حيث بدأها بالغزل ووصف المحبوبة ، ثم تحدث عن الشوق وألم الفراق فقال :

كم أسالت من الدموع غروبا حين أبدت عن واضح ذي غروب

مالها حرمت وصالي وعدت حسناتي في حبها من ذنوب[١]

ثم نجده قد خرج من الغزل ببراعة إلى المديح مسجلا اسم المرسل إليه وهو ابن النقيب قائلاً :

فكأني زعمت أن النجوم الز هر تعلوا مناقب ابن النقيب

لا ونعماه لم تكن ذا وهل يصـ ـدر ذا عن مهذبٍ أو لبيب[٢]

وفعل ذلك أيضا في رسالته التي أرسل بها إلي ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) حينما أهدى إليه أقلاماً ، حيث قد بدأها بالغزل بما يتناسب مع فحوى الرسالة فقال في مطلعها :

بعثت بها تذكرني القدودا ومختضب الأنامل والخدودا[٣]

وكذلك كان يبدأ أغلب أجوبته عن الرسائل التي وصلت إليه بالغزل ، حيث نجده يتخيل أبيات ابن الوحيد التي وردت عليه بامرأة عذراء حسناء تتحلى بحلة يرجع صناعتها إلى مدينة صنعاء باليمن فنجده يقول :

أرسلتها كالروضة الغناء وزفتها كالغادة الحسناء

(١) السفينة : ٢ / ٤٨٩ – ٤٩٠ .
(٢) المصدر السابق ذاته : ٢ / ٤٩٠ .
(٣) المصدر السابق ذاته: ٢ / ٥٥٨ .

عـــذراء ترفـــل في وشـــائع حلـــة تعـــزى صـــناعتها إلى صـــنعاء[١]

هذا هو المنهج السائد لدى العزازي في رسائله الشعرية وبخاصة التي يكون الغرض منها المديح ، ولا شك أن هذا المنهج يتناسب مع هذه الرسائل ، أما غيرها من الرسائل التي تحمل غرضاً آخر فلم يلتزم في أكثرها بهذا المنهج ، إذ نجده يدخل في غرضها مباشرة ، فقد فعل ذلك في غرض العتاب ، فنجده مثلا يعاتب صديقه جمال الدين التلمساني قائلا :

أخ لـــي كـــان يمـــنحني الـــودادا ويحمـــل عنـــى النـــواب الشـــــدادا

فبـــدَّل ذلـــك الإخـــلاص مـــذقاً وصـــير تلكـــم القربـــى بعـــادا[٢]

وهكذا نستطيع أن نقول : إنه سلك الدرب الذي سلكه الشعراء القدامى في افتتاح قصائد المديح بالغزل لاستمالة الآذان ، وامتلاك الأفئدة ، ثم الخروج من الغزل أو ما أشبهه من الأغراض الثانوية في الرسالة إلى الغرض الأساسي وهو المديح ، على أنه لم يسلك هذا المنهج في رسائله ذات الأغراض الأخرى .

ولعل أهم ما يميز العزازي في رسائله الشعري مادمنا بصدد الحديث عن الشكل العام لهذه الرسائل هو حسن التخلص ، وهو شيء يحمد عليه حقاً ، ويحسب له، وقد لفت نظري ، فرحت أستقصى تخلصاته حيث يخرج من غرض إلى غرض آخر برفق وبهدوء ، ودون قفز، وفي إيجاز شديد معجز، وخير مثال على ذلك رسالته التي بعث بها إلى ابن النقيب (ت٦٨٧هـ) والتي ذكرتها منذ قليل فرأينا كيف تخلص من الغزل إلى

(١) المصدر السابق ذاته: ٢ / ٥٣٥ .
(٢) ديوان العزازي : ٣٤٣ .

المديح بحرفية عالية، ولم يتوقف حسن تخلصه على الخروج من غرض إلى آخر، بل كان يحسن استخدام اسم المرسل إليه دون أن تجد هناك فجوة أو إقحام لهذا الاسم.

أما خواتيم هذه الرسائل نجده عادة ما يختمها بالدعاء للمرسل إليه أو النصح والإرشاد فمن الدعاء قوله في ختام إحدى الرسائل التي بعث بها إلي شهاب الدين التلَّعفرى :

فالله يصرف عنك أسباب الردى ويكف عنك يد الزمان القاسي[١]

الإيقاع الشعـــري :

لقد أجمع النقاد على أن الموسيقي عنصر مهم وأساسي في صياغة الشعر ، إذ العلاقة بين الشعر والموسيقى " علاقة عضوية تجعل من النص الشعري صورة فنية متماسكة ، فهي لب الشعر وعماده الذي لا تقوم له قائمة بدونها "[٢]، ومن ثم فهي فارق جوهري من الفوارق التي التي تميز الشعر على النثر ، فنجد ابن رشيق القيرواني يقول في هذا الصدد : " الوزن أعظم أركان الشعر ، وأولاها به خصوصية "[٣].

ولما كانت الرسائل التي بين أيدينا شعراً كان لزاماً علينا أن نتحدث عن الإيقاع فيها ، فمن خلال تلك الرسائل تبين لنا أن العزازي قد تمكن من

(١) السفينة : ٢ / ٥٦٨ .
(٢) فصول في الشعر ونقده ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ١٩٧١م : ٢٩ ٢٩ .
(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ١ / ١٣٤ .

توظيف نغمة الموسيقى في الإفصاح عن معانيها ، والترجمة عن خواطره ، حيث اهتدى بمشاعره إلى الملائمة بين أوزنها وموضوعاتها ، والواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية الارتباط الشديد بينهما ، ومدى ملاءمته لعاطفة الشاعر " فالوزن المتخير يلتقطه وجدان الشاعر وحركة الأفكار ، والإيقاع في نفسه "[١] .

لقد كانت أوزان هذه الرسائل دليلاً علي مقدرة العزازي الفنية وكذا الشعراء الذين تراسل معهم ، حيث أخذت هذه الرسائل نمط المعارضة ، فنجد العزازي ينظم رسالة شعرية ويبعث بها إلى شاعر ما فيرسل له هذا الشاعر جوابها على الوزن ذاته وقافيتها ، وكذا العزازي نجده يجيب هؤلاء الشعراء على النمط ذاته ، ولهذا وجدنا الأوزان المستعملة في هذه الرسائل البحور الطويلة إذ هي أكثر طواعية وأكثر تماشياً مع أغلب الموضوعات وفي الإحصائية التالية توضيح لذلك :

البحر	البسيط	الكامل	الخفيف	الوافر	الطويل	المتقارب	الرمل	السريع	المديد	المتدارك
عدد الرسائل	١٧	١٣	١٣	١٢	٥	٥	٥	٣	١	١

ويتضح من خلال تلك الإحصائية أن العزازي قد نظم رسائله الشعرية على البحور الممتدة ، التي تستوعب انفعالاته ، وتمتد مع امتدادها ، وهو في هذا لا

(١) قضايا النقد الأدبي الحديث د / محمد السعدي فرهود ، دار الطباعة المحمدية ط ثانية ١٩٧٩م : ١٣٥ .

يخرج عن الإطار الذي سلكه شعراء العربية ، حيث إن البحور التي أكثر من النظم عليها كانت أكثر شيوعا واستعمالاً عند شعراء العرب ، حيث كان يميل إلى محاذاتهم والمحافظة على تراثهم اللغوي وهذا واضح في كلام النقاد عنه وقد ذكرت ذلك في التمهيد .

ويتضح أيضا من خلال استخدامه للبحور الأحد عشر السابقة واستعماله للتام منها دون المجزوء طول نفسه الشعري ، مما ساعده ذلك على المحاكاة ، لأن هذه البحور أنسب للتعبير والمحاذاة [١]، ولا أدل على ذلك أن هذه البحور قد أعطت مساحة للشعراء للشعراء المتراسلين معه في معارضته حيث قد نظموا أجوبتهم على البحور ذاتها وفى موضوعها .

ولم يخرج العزازي في نظم رسائله عن الأوزان الخليلة إلا في رسالة واحدة وهى تلك الموشحة التي بعث بها إلى شهاب الدين التلَّعفرى يمدحه فيها ومطلعها :

بـــات طـــريفٍ يتشـــكى الأرقـــا وتوالـــت أدمعـــي لا ترتقـــي[٢]

هذا وقد أتى بحر البسيط في مقدمة البحور التي وزَّع عليها ما يضطرم في حناياه من انفعالات صادقة ، وعواطف جياشة تجاه أصدقائه ، يليه بحر الكامل ، فالخفيف .

(١) ينظر : العروض (تهذيبه وإعادة تدوينه) ، جلال الحنفي ، مطبعة العاني ، بغداد بغداد عام ١٣٩٨هـ : ١٦٤ ، والعروض الواضح وعلم القافية ، د . محمد على الهاشمي، دار القلم – دمشق ، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م : ٤٧ .
(٢) فوات الوفيات : ٤/ ٦٨ – ٦٩ .

ومن هنا يتضح أن العزازي لم يقتصر في رسائله على تشكيل إيقاعي واحد ، بل عدد إيقاعاته عن طريق تنويع استعمال البحور ، وهو في توظيف هذه الإيقاعات لم يخرج عن الإيقاع الخليلي ، كما نلاحظ أن العزازي في هذه الرسائل قد ناسب بين مضامينها وأوزانها حيث برهنت النماذج التي سبق ذكرها على ذلك ، كما أسفرت هذه الرسائل عن حس إيقاعي يتمتع به العزازي ، فقد جاءت هذه الرسائل في سبعمائة وأربعين بيتا من مجموع أربعة ألاف بيت هي حصيلة ديوانه ، حيث لم تقع عيني على بيت مكسور أو به زحاف قبيحة أو إقواء أو سناد أو ما شابه ذلك .

أما بخصوص القافية فلها قيمتها العظمى ، وأهميتها الكبرى في الموسيقى الخارجية إذ " هي بمثابة الفواصل الموسيقية ، يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن[١] " .

فهي إذاً لا غنى عنها في القصيدة نظراً لجرسها الذي يتضافر مع موسيقى الوزن ، ويكتمل بهما التعبير الموسيقى " فهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية "[٢] .

ولما كانت الرسائل التي بين أيدينا شعرا كان لزاما علينا أن نظر أمر القافية فيها ، حيث تبين لنا أن العزازي قد أتقنها على نحو رائع ، فلم يخرج عن سائر شعراء العربية في شأن كثرة استعمال بعض الحروف

(١) موسيقي الشعر العربي ، د ٠ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨ م : ٢٤٦ .
(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ١ / ١٥١ .

العربية لتكون روياً لرسائله هذه ، فهو في هذا الأمر قد لف لفهم ، وحذا حذوهم ، وكشف عن منهج تعاطيه لها ، ذلك المنهج الذي يكمن في استعمال المألوف المعروف كي يكون قريبا من ذهن السامع ، مقبولاً في نفس المتلقي حتى تسهل المعارضة ، لذا حاول الابتعاد عن الغريب المهجور قدر الإمكان ، وهذه إحصائية توضح أكثر الحروف العربية استعمالاً في روىِّ رسائله :

حروف الروى	أ	ب	ج	د	ر	ز	س	ض	ع	ف	ق	ك	ل	م	ن	هـ
عدد المرات	٢	١١	٢	١٠	٦	٤	١	١	٢	١	٥	٢	٦	٨	٧	٢

وبالنظر إلى استعمال الحروف العربية روياً للأبيات الشعرية نلحظ أنها تنقسم " إلى أقسام أربعة حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي :

(أ) حروف تجئ روياً بكثرة ، وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار الشعراء ، وتلك هي : الراء . اللام . الميم . النون . الباء . الدال . السين . العين.

(ب) حروف متوسطة الشيوع ، وتلك هي : القاف . الكاف . الهمزة . الحاء . الفاء . الياء . الجيم .

(ج) حروف قليلة الشيوع : الضاد . الطاء . الهاء . التاء . الصاد . الثاء .

(د) حروف نادرة في مجيئها روياً : الذال . الغين . الخاء . الشين . الزاي . الظاء . الواو "[1] .

ويتضح لنا من خلال الإحصائية السابقة أن شأن العزازي في توظيف حروف الهجاء روياً لرسائله شأن شعراء العربية ، حيث أكثر من استعمال الحروف التي تقع روياً بكثرة ، والحروف التي استعملها بكثرة هي : الباء ، استعمله ١١ مرة ، والدال استعمله١٠ مرات، والميم استعمله ٨ مرات ، والنون استعمله ٧ مرات ، و الراء استعمله٦ مرات ، واللام أيضاً ٦ مرات .

كما استعمل الحروف المتوسطة الشيوع – ماعدا الحاء ، والياء – استعمالاً لا يرقى من حيث عدد المرات إلى استعمال الحروف المشار إليها آنفاً إلى عدد مرات استعمالها ، فقد استعمل كلاً منها استعمالاً يتراوح ما بين المرة والمرتين .

(١) موسيقي الشعر العربي : ٢٤٨ .

ولم يستعمل العزازي من الحروف النادرة في مجيئها روياً سوى حرفاً واحداً وهو الزاي حيث استعمله ٤ مرات ، ويلاحظ أنه أتى به موصولاً بالهاء .

ومن هنا يبدو لنا أن العزازي استعمل من حروف الهجاء روياً لرسائله ستة عشر حرفاً من حروف المعجم ، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان ذا ثقافة لغوية عميقة ، تمثلت في اتساع معجمه اللغوي ، وإدراكه الدقيق بمدلولات الألفاظ ، واتساقها والإيقاع الشعري .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبعد ... فهذه الدراسة لفن المراسلات لدى الشهاب العزازي قد أظهرت عدة أمور نستطيع أن نجمل فيها ما يلي :

١- إن فن التراسل بالشعر لم يكن وليد العصر المملوكيِّ ، بل ترجع جذوره إلى العصر الجاهلي ، وتطور عبر العصور المختلفة حتى تعددت ألونه في العصر المملوكيِّ عصر العزازي .

٢- تعددت أغراض فن المراسلات الشعرية في هذا العصر من مدح وتشوق ، واعتذار وعتاب ، وتهادى وتهاني ، وشكر واستعطاف، ولقد عالج العزازي معظم هذه الموضوعات في رسائله الشعرية .

٣- لقد أسفرت هذه الرسائل الشعرية عن شاعر عملاق مطبوع ، ذو حس مرهف وذوق عالٍ ، له مكانته العلمية والاجتماعية ، تربطه بمعاصريه علاقات طيبة .

٤- أزحنا الستار في ثنايا هذا البحث عن حصيلة كبيرة من أشعار " شهاب الدين العزازي " لم تعرض في ديوانه ، وبخاصة تلك الرسائل الموجودة في كتاب السفينة لابن مبارك شاه ، وكذلك الرسائل الموجودة في ثنايا كتب التراجم ، وهذا ما يدعوني بالرجوع مرة ثانية إلى ديوان العزازي ، بالاستدراك عليه ، لإضافة أشعار كثيرة غير مثبته في ديوانه ، الذي حققه رضا رجب .

٥- كما تمخض نظام التراسل بالشعر بين العزازي ومعاصريه عن لون أدبيٍّ ألا وهو المعارضة ، حيث كانت رسائل العزازي الشعرية إما رسائل يبعث بها إلى أصدقائه أو أجوبه على رسائلهم ، ومن ثم كان يجبهم على الوزن ذاته والقافية ، أو يفعلون هم ذلك إذا كانت الإجابة من جانبهم .

٦- كما أفصحت الدراسة أن العزازي شاعر محافظ على التراث العربي القديم ، إذ لم يلهث وراء بعض الظواهر الفنية التي ظهرت في عصره ، فقد سار خلف أقدام الأجداد في المعاني والألفاظ ، والصور والأخيلة ، وأيضاً في المقدمات والمطالع ، كما بدا محافظاً على الوزن العمودي الخليلي ، وإتباع القوافي الشائعة عند العرب .

٧- كذلك تبين لنا من خلال تلك الرسائل الشعرية ، بأن العزازي كان يتمتع بأسلوب عالٍ ، يحمل فيه الاحترام للغير حتى ولو كان مساوياً له في الرتبة أو أقل منه .

٨- ومن خلال عرضنا لهذه الرسائل الشعرية ، يمكن أن نرد اتهامات بعض الأدباء والنقاد والباحثين القائلين بضعف العصر المملوكي عصر العزازي ، وانحطاطه وانحداره ، وهذه أوصاف عمومية جائرة ، إذ ليس من الصواب أن يصف أحد ما حقبة طويلة ، وبيئات متنوعة ، ومشارب مختلفة ، إذ الدراسة الموضوعية الجادة تنافى ذلك ، هذا فضلا عن غياب الكثير من آثار هذا العصر وأنه لا يزال قابعاً حبيس

الأدراج ولم يخرج إلى النور حتى الآن ، وأن في أكثر مما ظهر منها كفاية في رد هذا الغبن .

وبعد هذا الجهد المتواضع الذي بذلته حول دراسة جانب فني من نتاج العزازي ، وهو فن المراسلات الشعرية ، فلا أدعى أنني قد وفيت هذا الشاعر حقه ، ولكنها لبنة أضعها في هذا الصرح الشامخ ، وحسبي أنني اجتهدت ، وما قصرت ، فإن أكن قد أصبت فيما بذلت فهذا من توفيق الله وحده ، وإن أكن قد أخفقت فكفاني أنني أخلصت فيما رمته ، وصدقت فيما نويت ، وعلى الله قصد السبيل .

هذا وبالله التوفيق ومنه وحده العون والسداد ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

****

دكتور / حامد سعد على خضرجى جاويش

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية بنين بدسوق

المصادر والمراجع

(١) الأدب في العصر المملوكي ، تأليف دكتور / محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة عام ١٩٧١م .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير (ت :٦٣٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د٠ط ، د٠ت

(٣) الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين – تأليف / خير الدين الزر كلى ، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة ـ عام ١٩٨٠م .

(٤) أعيان العصر وأعوان النصر ، تأليف : الصفدي (ت٧٦٤ هـ) ، تحقيق : فالح أحمد البكور ، دار الفكر ، بيروت ، ط١: ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

(٥) البداية والنهاية ، لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق : أحمد أبو ملحم ، د / على عطوى ، فؤاد السيد ، مهدي ناصر الدين ، دار الريان للتراث ، القاهر ، ط١ : ١٤٠٨ – ١٩٨٨م

(٦) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، لابن حبيب (ت: ٧٧٩هـ) ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦م

(٧) توشيع التوشيح ، للصفدي ، تحقيق : ألبير حبيب مطلق ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١: ١٩٦٦م

(٨) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية ، تأليف / أحمد زكى صفوت ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده – القاهرة – عام ١٩٣٧م

(٩) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، أم القرى ، القاهرة ، (د٠ ت)

(١٠) الدليل الشافي على المنهل الصافي ، لابن تغرى بردى (ت : ٨٧٤ هـ) تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط٢ : ١٩٩٨م

(١١) ديوان العزازي ، تحقيق دكتور / رضا رجب ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٤ م – دار الينابيع – دمشق .

(١٢) ذيل مرآة الزمان ، لليونيني ، تحقيق وزارة التحقيقات والحكمة والأمور الثقافية للحكومة الهندية .

(١٣) السفينة لأحمد ابن مبارك شاه المصري – بجميع أجزائه - مخطوط بمعهد المخطوطات بالقاهرة – ميكروفيلم تحت رقم ٤٧٤ – ٤٨٨ أدب .

(١٤) الشخصيات المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ، تأليف الدكتور / أحمد سيد أحمد ، دار المعارف ، طبعة عام ١٩٨٩م

(١٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) ، تحقيق : عبدالقادر الأرناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير ، دمشق ، ط١: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

(١٦) صحيح البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(١٧) الصداقة والصديق لأبى حيان التوحيدي ، شرح وتعليق - على متولي صالح – مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٧٢م .

(١٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان، د. ت .

(١٩) العروض (تهذيبه وإعادة تدوينه) ، جلال الحنفي ، مطبعة العاني ، بغداد عام ١٣٩٨هـ .

(٢٠) العروض الواضح وعلم القافية ، د . محمد على الهاشمي ، دار القلم – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(٢١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيروان ، تحقيق- محمد محيى الدين عبد الحميد – مكتبة الرياض الحديثة – بدون تاريخ وطبعة .

(٢٢) فصول في الشعر ونقده ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ١٩٧١م .

(٢٣) فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي (ت : ٧٦٤ هـ) ، تحقيق : د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت د٠ ط ١٩٧٣م .

(٢٤) في ميزان النقد الأدبي ، د / طه أبو كريشه ، الطبعة الأولى – عام ١٩٨٦م .

(٢٥) قضايا النقد الأدبي الحديث د / محمد السعدي فرهود ، دار الطباعة المحمدية ط ثانية ١٩٧٩.

(٢٦) لسان العرب لابن منظور – دار صادر بيروت – الطبعة الثالثة عام ١٤١٤هـ .

(٢٧) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمري(ت :٧٤٩هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر خريسات ، د/ عصام مصطفى عقلة ، د/ يوسف أحمد بن ياسين ، مركز زايد للتراث والتاريخ ،الإمارات – العَين، ط١ : ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

(٢٨) المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهى ، عالم الكتب –بيروت ،الطبعة الأولى عام ١٤١٩ هـ .

(٢٩) مصادر الشعر الجاهلي ، تأليف/ ناصر الدين الأسد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة: ١٩٨٨م .

(٣٠) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، تأليف الدكتور / بكرى شيخ أمين ، مطبعة دار الشرق-بيروت/١٩٧٢م .

(٣١) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة – الناشر : مكتبة المثنى – بيروت – دار إحياء التراث العربي.

(٣٢) المقفى الكبير ، للمقريزي ، (ت ٨٤٥هـ) ، تحقيق : محمد على اليعلاوى ، دار الغر الإسلامي ، بيروت ، ط ١ :١٤١١هـ - ١٩٩١م

(٣٣) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، لابن تغرى بردى (ت : ٨٧٤ هـ) تحقيق : د/ محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة :ط١ : ١٩٨٤م .

(٣٤) موسيقي الشعر العربي ، د ٠ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ، عام ١٩٧٨ م .

(٣٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٢م .

(٣٦) نظم العقيان في أعيان الأعيان – تأليف جلال الدين السيوطي ، ط / ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م مكتبة الثقافة الدينية .

(٣٧) هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل باشا البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د٠ ت.

(٣٨) الوافي بالوفيات ، للصفدي ، التراث العربي ، بيروت (ت : ٧٦٤هـ) ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ :١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(٣٩) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- لابن خلكان -تحقق: إحسان عباس الناشر: دار صادر – بيروت .

الرسائل العلمية :

(٤٠) الحس النقدي في كتب الاختيارات الشعرية في القرن التاسع الهجري مع تحقيق الجزء الثاني عشر من كتاب السفينة لابن مبارك شاه ، ، رسالة ماجستير ، من إعداد الباحث / حامد سعد على خضرجى- إشراف أ ٠ د / عبد الكريم أحمد فراج ، و أ ٠ د / السيد دياب يوسف دويدار ، كلية اللغة العربية، إيتاى البارود، جامعة الأزهر، عام ٢٠٠٩م .

(٤١) ديوان شهاب الدين الخيمي حقق في رسالة علمية(ماجستير) ، إعداد الباحث / شادي إبراهيم حسن عمرو ، إشراف الأستاذ الدكتور / حسن محمد عبد الهادي عيسى – جامعة الخليل عام ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .